ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ
وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم
بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ (القرآن الحكيم)

الدّاعي

مجلة عربية إسلامية شهرية
تصدر عن الجامعة الإسلامية : دارالعلوم
ديوبند ، يوبي ، الهند

ISSN 2347-8950

العـــــدد : ١٢ ، السنـــــة : ٤٦

ذوالحجة ١٤٤٣هـ ، يوليو ٢٠٢٢م

تحت إشراف

فضيلة الشيخ أبوالقاسم النعماني
رئيس الجامعة

رئيس التحرير

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري
الأستاذ بالجامعة

الاشتراكات

- ثمن النسخة: ٣٠ روبية هندية

قيمة الاشتراك السنوي

- في الهند : ٣٠٠ روبية هندية
- وفي خارج الهند للأفراد : ٦٠ دولارًا
- وللمؤسسات الحكومية : ٨٠ دولارًا

عنوان المجلة على الانترنت
Web : http://www.darululoom-deoband.com/arabic/magazine

طالعها الآن

البريد الالكتروني
E-mail : info@darululoom-deoband.com

المراسلات

رئيس التحرير مجلة الداعي
دارالعلوم ، ديوبند ، يوبي (الهند)
الرمز البريدي ٢٤٧٥٥٤

Chief Editor
AL – DAIE
Arabic Islamic Monthly
Darul – Uloom,
Deoband – 247554
(U.P.) INDIA

الهاتف والفاكس
Ph. : (00-91-1336) 222429
Fax : (00-91-1336) 222768

المواد التي تنشرها المجلة تعبر عن وجهة نظر كاتبيها و لا تعبّر – بالضرورة – عن رأي المجلة

المحتويات

كلمة المحرر

- إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ — التحرير — ٣

كلمة العدد

- الحج أسراره وأهدافه — محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري — ٤

الفكر الإسلامي

- من ظلال التفسير — العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني الديوبندي رحمه الله — ٩

دراسات إسلامية

- أساليب التعليم عند المسلمين — الأستاذ محمد الحسيني عبد العزيز — ١٥
- من تاريخ الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند — الأستاذ سيد محبوب الرضوي الديوبندي رحمه الله — ٢٠
- صفات قرآنية لليهود عبر التاريخ — الأستاذ صلاح عزام — ٢٦
- عوامل التربية في الإسلام — الأستاذ علي القاضي — ٢٩
- الزّيّ الإسلامي — الدكتور أحمد الحجي الكردي — ٣٥
- فِتيَةٌ آمنوا بربهم — الأستاذ محمد المجذوب — ٣٩
- يومُ الحج الأكبر — الأستاذ عزت محمد إبراهيم — ٤٥
- الحج والعمرة ودعاء الرسول — الأستاذ أحمد عبد المحسن المشاوي — ٤٩

إشراقة

- ... كَمَا حَكَى عَن خَيَالِ الطَّيْفِ وَسْنَان — أبو عائض القاسمي المباركفوري — ٥٦

كلمة المحرر

إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ

مع دخول شهر ذي الحجة من كل عام، ودنو أيام الحج الحج الأكبر يهفو قلب كل مسلم في مشارق الأرض ومغاربها إلى ديار القدس، ومنزل الوحي الأول، ومهبط رسالة الله تعالى الأخيرة إلى من في الأرض جميعًا، ديار الحرمين الشريفين يهفو إليها قلبه أكثر مما يهفو قلب العاشق الهيمان إلى حبيبه، ويهيج شوقه وحنينه إليها أشد من حنين الصادي إلى الماء، والغريب إلى بلده الذي شهد مدارج طفولته، وملاعب صباه، وعاش في رحابه، وتنفس في جوه؛ إلى بلد الأمان و واحة السلام، ودار الإنسان المفتوحة لكل إنسان يؤمن بربه وخالقه!

أحِنّ إلَى الحِجَازِ حَنِينَ إلفٍ ... قَرِين الحبِّ فَارَقَهُ القَرِينُ

و

وَكِدتُ وَلم أُخلَقْ من الطيرِ إنْ بَدَا ... سَنَا بَارِقٍ نَحْوَ الحِجَازِ أطِيرُ

ويقصد هذا البيت العتيق كل مَن كتب الله تعالى له الحج، وأجاب نداء خليل الله إبراهيم عليه السلام حين أمره ربه بـ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج:٢٧]، فذُكر أنه قال: يا رب، وكيف أبلغ الناس، وصوتي لاينفذهم؟ فقال: نادِ، و علينا البلاغ، فاعتلى جبلَ أبي قعيس أو غيره، وجعل إصبعيه في أذنيه، وقال: يا أيها الناس، إن ربكم قد اتخذ بيتًا فحجوه. فيقال: إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوتُ أرجاء الأرض، وأسمع مَن في الأرحام والأصلاب، وأجابه كل شيء سمعه من حجر ومدر وشجر، ومَن كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة،لبيك اللّهم لبيك. ويتقاطر إليها الناس من استطاع إليها سبيلا من فجاج الأرض القريبة والبعيدة، فالغني الموسر يجد الظهر، وتحمله أنواع المراكب و وسائل المواصلات، والفقيرُ المعدم لايجد مطيةً إلا قدميه من مئات الآلاف الذين تهوي إليها أفئدتهم تلبيةً للدعوة الإبراهيمية منذ آلاف السنين.

يتجول الحاج أو المعتمر في فجاج مكة، ويسير في رحابها، ويرتاد جنباتها، فيعيش ذكريات الماضي الزاخر بالأحداث والوقائع التي شهدتها هذه البقاع المقدسة: أحداث الوحي الذي طرق مسامع النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أول مرة، و هو يتحنث في غار حراء، يفترش الحجارة، ويستظل بمثلها، ومن حوله الصخور الصلدة الصماء، كأنها جمرات تتلظى، وتحته الصحراء التي تفح رمضاؤها نارًا؛ في مكان أبلغ في القلوب أثرًا، وأكبر على البشرية فضلاً، وأشدَّ في التاريخ ثباتًا وخلودًا، وأعظم على الحضارة و المدنية نعمةً ويدًا؛ فلما صدع النبي محمد -ﷺ- بدعوته إلى الحق والأمن والخير والسلم والعدل والمساواة، وتحطيم الأوثان: أوثان الشجر والحجر والدم واللحم، وإلى تبديد الظلام الحالك، ومحو الأمية، ونشر العلم، انقلبت عليه وعلى حفنة قليلة من أتباعه الدنيا رأسًا على عقبٍ، فكان يحمل الدعوة والدين، وليس معه إلا رجل وامرأة وصبي: أبو بكر وخديجة وعلي رضي الله عنهم، ممن واجهوا أحرج المواقف التي تقشعر لسماعها الذوائب والشعور، وترتعد منها الفرائص، وتذوب النفوس، وترتج الجبال الشواهق؛ ولكنه صبر هو و أصحابه الصادقون، وصمدوا أمام الأذى، وثبتوا أشد من الجبال الرواسي. فماذا كانت العاقبة؟ انتصرت هذه الفئة القليلة المخلصة التي استجابت لدعوته، في بدر وحنين.... ثم فتحت العالم، وأزاحت عن الأرض دولا ظالمةً طاغيةً جثمت على صدرها؛ وشقت لأهلها طريقًا إلى المدنية الخيرة والسلام والأمن ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود:٤٩]. [التحرير]

(تحريرًا في الساعة العاشرة صباحًا من يوم الثلاثاء: ٢٢/شوال ١٤٤٣هـ=٢٤/مايو٢٠٢٢م)

الحج أسراره وأهدافه

الحج ركن من أعظم أركان الإسلام، وأهم مرتكزات الدين الأساسية، ومن أشهر العبادات الإسلامية. وهذه العبادة الإسلامية بمنزلة الروافد للعقائد، والدعائم للإنسان المسلم في حياته، وتتضمن مصالح وحكمًا ومعاني دقائق وأهدافًا ساميةً غابت عن أعين معظم الحجيج. وعادت هذه الشعيرة العظمى ترفيهًا ونزهةً في رحاب بيت الله تعالى. ويشكل الحج مؤتمرًا عالميًّا إسلاميًّا يتدارس فيه المسلمون ما يعاني إخوانهم المسلمون وأخواتهم المسلمات من الويلات والنكبات وما يصب عليهم من عاديات الدهر من غير هوادة، وما يمرون به من المشاكل الدينية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية في مشارق الأرض ومغاربها على أيدي الظلمة الطغاة البغاة أعداء الله تعالى ورسوله. يقول العالم الهندي الفريد محمد قاسم النانوتوي وهو يتحدث عن أسرار الحج:

«وأما محبوبية الله تعالى ومحاسنه مما يحق أن نعبر عنه بالجمال، فيجب أن نلاحظ في هذا الصدد أمرين: الأول: الاستغناء عن كل ما سوى الله تعالى. فإن طلاب حب المحبوبين مجازًا إذا كانوا لايبالون بشيء في سبيل حبهم، فأنى يتحقق ذلك في سبيل حب المحبوب الحقيقي؟ والأمر الثاني: ما ينشأ بعد هذا الاستغناء من الكيفيات المتمثلة في الفناء في حب الله تعالى والامحاء فيه، وما يعقبه من الوجد، والتيه في الصحراء، ومناجاة طيف الحبيب حينًا، وشكوى الناصحين حينًا آخر، والتهيئ لتضحية المال والنفس بإخلاص حينًا ثالثًا، وقِس عليه ما عدا ذلك..... وبإزاء الأمر الثاني يسلك المحب- انطلاقًا من حبه- الطريق إلى حيث يتجلى الرب سبحانه وتعالى، وذلك بحيث لايفرق أحدهم بين الأعالي والأسافل، تائهًا غير مبالٍ بأظفاره وأشعاره، حافيًا عاريًا، أشعث أغبر، ملبيًا، ويطلق عليه أهل الإسلام الإحرامَ، ويصل إلى هذه البقاع فيطوف حينًا، ويتيه حينًا آخر هنا وهنا، ويطلق عليه الطواف، ثم يتوجه إلى صحراء عرفات، متضرعًا خاضعًا خاشعًا لله تعالى، ثم يرمي موقف الناصح الجهول وهو الشيطان، وبما أن النصح بالنسبة للعاشق بمنزلة صب الماء على الطاجن الملتهب، فيقوم بعد رمي الجمار انطلاقًا من الإخلاص بتضحية النفس والمال، أي الذبح وتحمل المشاق، وهو ما يطلق عليه الحج»[1].

ويقول العلامة أشرف علي التهانوي المعروف في شبه القارة الهندية بحكيم الأمة- وهو يشرح أسرار الحج ومقاصده وحكمه-:

«الحكمة في فرض الحج على بني آدم أن الله تعالى جرت سنته أن يضع الأمور الجسمانية بإزاء الأمور الروحانية نموذجًا يدل على الأمور الروحانية. وجريًا وراء هذه السنة الإلهية وضع حجر أساس الكعبة المشرفة. والأصل أن الإنسان خلق للعبادة، وهي على نوعين: الأول: تواضع وتذلل، و الثاني: حب وإيثار. فأمِرَ بالصلاة التي تؤدي بكل عضو من أعضاء الإنسان إلى حالة من التواضع و التذلل في اللون الجسدي حتى تضمنت الصلاة سجود الجسد بجانب سجود القلب. وسجود الجسد ليس عبثًا. فمن المسلم أن الله تعالى خلق الجسد كما خلق الروح، وله من الحقوق الخاصة بالخالق فيهما جميعًا، أضِف إلى ذلك أن الجسد والروح كليهما يتفاعلان، ويتأثر بعضهما ببعض. فقد يدعو سجود الجسم إلى سجود الروح، وقد يورث سجود الروح الجسدَ حالةً من السجود؛ فإن الجسد والروح بمنزلة مرايا متقابلة، يتراءى في إحداهما ما ينعكس على الأخرى. فالذي يتكلف الضحك قد يضحك حقًا من الصميم، والضحك يرجع إلى انبساط الروح. وقس عليه أن المرء إذا تكلف البكاءَ، وتظاهر به، فقد يبكي حقًا من صميم القلب، بكاء نابعًا من تألم الروح والتعطف والرأفة. فإذا ثبت أن النوع الثاني من العبادة – أي الحب والإيثار- يتضمن هذا التفاعل بين الروح و الجسد في هذه التأثيرات، فاعلم أن الروح الإنساني يحوم حول حبيبه في عالم الحب دائمًا، ويقبل دياره، ويناجي آثاره، فكانت الكعبة المشرفة نموذجًا مجسدًا للمحبين، قال لهم: هذا بيتي، والحجر الأسود هذا حجر في بلاطي. وإنما أمِرَ به الإنسان ليتظاهر بحبه و ولعه وعشقه في صورةٍ مثاليةٍ. فالحجيج يحومون بأجسادهم في مشاعر الحج حول بيت الحبيب. فكأنهم تائهون في حب الله تعالى مشدوهين، ومشدودين بهذا البيت. فيتخلون عن الزينة أنواعها وصورها، ويطوفون ببيته مستهامين. وهذا الولع الصوري يورثهم لوعةً روحيةً وحبًّا قلبيًّا. وتحقيقًا لهذا الهدف تطوف أجسادهم بهذا البيت، ويقبلون حجر بلاطه. وما أكثر من يحب الله تعالى ويولع به، فلا يجد غير الحج سبيلا إلى تحقيق شوقه هذا، وتجسيد أمنيته».

وعلى المسلم أن يتأمل في حكم وأسرار مناسك الحج وأعماله ويعمل بها، ويشهد منافع له في دينه ودنياه. ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُواْ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ﴾ [الحج:٢٧-٢٨].

من أسرار الإحرام:

يدخل به المرء في مراسم التعظيم لله تعالى ولشعائره وحرماته، وبخلع اللباس الرتيب يخلع الدنيا وما فيها، ويرتدي البياض من الثياب، الذي يذكره بالأكفان التي يدخل بها إلى قبره، وينتقل من الدنيا إلى الآخرة، وكما أنه يشير إلى أنه يدخل إلى حمى الله تعالى الذي حماه للناس، قال تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج:٢٦]. يقول الشاه ولي الله الدهلوي: «وَأَقُول: اعْلَم أَن الْإِحْرَام فِي الْحَج وَالْعمْرَة بِمَنْزِلَة

التَّكْبِير فِي الصَّلَاة، فِيهِ تَصْوِير الْإِخْلَاص و التعظيم وَضبط عَزِيمَة الْحَج بِفعل ظَاهر، وَفِيه جعل النَّفس متذللة خاشعة لله بترك الملاذ والعادات المألوفة وأنواع التجمل، وَفِيه تَحْقِيق معاناة التَّعَب والتشعث والتغبر لله، وَإِنَّمَا شرع أَن يجْتَنب الْمحرم هَذِه الْأَشْيَاء تَحْقِيقًا للتذلل وَترك الزِّينَة، والتشعث، وتنويهًا لاستشعار خوف الله وتعظيمه، و مؤاخذة نَفسه أَلا تسترسل فِي هَوَاهَا، وَإِنَّمَا الصَّيْد تلهٍ وَتوسع، وَلذَلِك قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «من اتبع الصَّيْد لَهَا»(٢)، وَلم يثبت فعله عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا كبار أَصْحَابه وَإِن سوغه فِي الْجُمْلَة. وَالْجِمَاع انهماك فِي الشَّهْوَة البهيمية، وَإِذا لم يجز سد هَذَا الْبَاب بِالْكُلِّيَّةِ لِأَنَّهُ يُخَالف قانون الشَّرْع، فَلَا أقل من أَن ينْهَى فِي بعض الْأَحْوَال كالإحرام وَالِاعْتِكَاف وَالصَّوْم وَبَعض الْمَوَاضِع كالمساجد. وسُئِلَ مَا يلبس الْمحرم من الثِّيَاب؟ «فَقَالَ: لَاتلبسوا القمص وَلَا العمائم وَلَا السراويلات وَلَا البرانس وَلَا الْخفاف»(٣)، وَقَالَ للأعرابي: «أما الطّيب الَّذِي بك فاغسله ثَلَاث مَرَّات وَأما الْجُبَّة فانزعها»(٤). والْفرق بَين الْمخيط وَمَا فِي مَعْنَاهُ وَبَين غير ذَلِك، أَن الأول ارتفاق وتجمل و زينة، وَالثَّانِي ستر عَورَة، وَترك الأول تواضع لله، وَترك الثَّانِي سوء أدب»اهـ(٥).

ويذكر العلامة التهانوي من أسرار لبس غير المخيط من الثياب في الإحرام فيقول:

«كان من المحتمل؛ بل من اللازم أن يرافق الأثرياءَ - الذين يجب عليهم الحج - بعضُ خدمهم في حجهم، ومن الفقراء من يحدو بهم حب الله تعالى إلى الحج وزيارة البقاع المقدسة، فقرر الإسلام أن يكتفوا جميعًا في لباسهم بالرداء العادي البسيط تحقيقًا للتسوية وكمال الوحدة بين أهل الإيمان، فيستوي الثري والفقير، فكلهم حفاة عليهم لباس بسيط ساذج للغاية، فيتحقق التماثل التام على ذروته»(٦).

من أسرار التلبية:

جاء في «أهداف التربية الإسلامية»(٧): «و«التلبية» التي يرددها الحاج ابتداء من «الميقات» إنما هي تزكية من الاستعمالات الخاطئة لمفاهيم «الحمد» التي تشيعها «ثقافات» الحمد لغير الله، وتسند «النعمة والملك» إلى الأصنام الممثلة لهذه الثقافات».

من أسرار الطواف بالبيت:

قال الشاه ولي الله الدهلوي رَحِمَهُ اللَّهُ- وهو يعدد أسرار الطواف بالبيت ومقاصده-: «وَمِنْهَا تَصْوِير الرَّغْبَة فِي طَاعَة الله، وَأَنه لم يزده السّفر الشاسع والتعب الْعَظِيم إِلَّا شوقًا ورغبةً كَمَا قَالَ الشَّاعِر:

إِذا اشتكت من كلال السّير واعدها

روح الْوِصَال فتحيا عِنْد ميعاد

وَكَانَ عمر رَضِي الله عَنهُ أَرَادَ أَن يتْرك الرمل والاضطباع لانقضاء سببهما، ثمَّ تفطن إِجْمَالا أَن لَهما سَببا آخر غير منقض فَلم يتركهما»(٨)

وقال العلامة أشرف علي التهانوي: «إن الطائف أشبه بالملائكة المقربين إلى الله تعالى، الحافين من حول العرش، الطائفين به. ثم إن الطواف بالبيت ليس طوافًا بالجسد فحسب؛ بل

المقصود من هذا الطواف الطواف برب الكعبة أيضًا؛ فخير الطواف ما يكون بالقلب حول حضرة الألوهية. والكعبة المشرفة في العالم الظاهر نموذج لحضرة الله تعالى، فإنها في عالم الباطن، و لاتدركها العين، كما أن الجسد نموذج للروح في عالم الظاهر»[٩]. فالحاج حين يطوف بالبيت العتيق كأنه ينظر إلى طواف الملائكة الطائفين من حول العرش الإلهي.

من أسرار السعي بين الصفا والمروة:

والسعي بين الصفا والمروة من الأعمال التي تنادي بصراحةٍ أن الطائف موحد، وتابع للحق يدين الملة الحنيفية، وشاكر لله تعالى على ما أنعم على أوائل هذه الأمة. يقول الإمام الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ...﴾ [البقرة:١٥٨]: «الحكمة في شرع هذا السعي الحكاية المشهورة، وهي أن هاجر -أم إسماعيل- حين ضاق بها الأمر في عطشها، وعطش ابنها إسماعيل عليه السلام أغاثها الله تعالى بالماء الذي أنبعه لها ولابنها من زمزم حتى يعلم الخلق أنه سبحانه وإن كان لا يخلي أولياءه في دار الدنيا من أنواع المحن إلا أن فرجه قريب ممن دعاه، فإنه غياث المستغيثين، فانظر إلى حال هاجر وإسماعيل كيف أغاثهما وأجاب دعاءهما، ثم جعل أفعالهما طاعةً لجميع المكلفين إلى يوم القيامة، وآثارهما قدوة للخلائق أجمعين ليعلم أن الله لا يضيع أجر المحسنين، وكل ذلك تحقيق لما أخبر به قبل ذلك من أنه يبتلي عباده بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات إلا أن من صبر على ذلك نال السعادة في الدارين و فاز بالمقصد الأقصى في المنزلين»اهـ.

ويقول الشاه ولي الله الدهلوي: «والسر في السعي بين الصفا والمروة على ما ورد في الحديث أن هاجر أم إسماعيل- عليه السلام- لما اشتد بها الحال سعت بينهما سعي الإنسان المجهود، فكشف الله عنها الجهد بإبداء زمزم، وإلهام الرغبة في الناس أن يعمروا تلك البقعة، فوجب شكر تلك النعمة على أولاده ومن تبعهم، وتذكر تلك الآية الخارقة لِتبهُت بهيميتهم، وتَدُلَّهم على الله، ولا شيء في هذا مثل أن يعضد عقد القلب بهما بفعل ظاهر منضبط مخالف لمألوف القوم فيه تذلل عند أول دخولهم مكة وهو محاكاة ما كانت فيه من العناء والجهد، وحكاية الحال في مثل هذا أبلغ بكثير من لسان المقال. قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لاينفرن أحدكم حتى يكون آخر عهده بالبيت»، وفي رواية: «أُمِرَ النَّاسُ أَنْ يَكُونَ آخِرُ عَهْدِهِمْ بِالْبَيْتِ، إِلَّا أَنَّهُ خُفِّفَ عَنِ الْمَرْأَةِ الْحَائِضِ»[١٠]. أقول: السر فيه تعظيم البيت بأن يكون هو الأول وهو الآخر تصويرًا لكونه هو المقصود من السفر، وموافقة لعادتهم في توديع الوفود ملوكها عند النفر، والله أعلم».اهـ

وقال العلامة أشرف علي التهانوي- وهو يشرح حكمة السعي بين الصفا والمروة-: «إن مثل السعي بين الصفا والمروة – مما يشكل فناء الكعبة المشرفة- كالعبد يكثر من التطواف بفناء ملِكِه، ليتظاهر بإخلاصه في خدمته، فينال منه لفتته الحانية،

أو كمثل رجل من الرعية يدخل على الملك لحاجة من حاجاته، ثم يخرج من عنده وهو لايعرف مصير طلبه وحاجته، فإنه يكثر من التطواف بفناء البلاط، ويتردد إليه، رجاء أن يرحمه الملك في المرة الثانية إن لم يرحمه في المرة الأولى، فهو مثل الساعي بين الصفا والمروة»(١١).

من أسرار الرمي وحكمه:

ليتأمل المسلم حين يرمي الجمار أنه لايرمي الشيطان، وليس المقصود رمي الجمار، وليس الشيطان واقفًا في حينه في مكانه، ولكن يجب أن يدرك أن الشيطان تنكر لأبيه إبراهيم عليه السلام حين رأى في المنام أنه يذبح ابنه الوحيد، وخرج به، ومعه الحبل والسكين إلى هذا المكان ليذبحه، فتمثل له الشيطان، و وقف في سبيله كي يزهده في ذبح ابنه، وتفطن إبراهيم لفتنته وإغوائه، فرمى بسبع حصيات، فتأخر وخنس، ولكنه لم يقطع أمله ورجاءه، فتمثل له مرة أخرى، فرماه بمثلها من الحصيات ثم مرة أخرى مثل ذلك.

يقول العلامة التهانوي- وهو يشرح السر في رمي الجمار-: «والسر في رمي الجمار ما ورد في الحديث من ذكر الله تعالى. والذكر على نوعين: الأول: ما يقصد به إعلان الخضوع لدين الله تعالى، و هذا النوع من الذكر يتطلب الإكثار من الذاكرين دون الإكثار من الذكر. ورمي الجمار من هذا النوع من الذكر، فلم يؤمر الناس فيه بالإكثار من الذكر، وإنما أمروا بالتجمع له، وأما الحصيات فالمطلوب به تعيين الذكر، ومن هذا يشترط التكبير مع كل حصى من الحصيات. روى أبوداود في سننه [برقم ١٨٨٨] عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ قال: «إنما جعل الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة ورمي الجمار لإقامة ذكر الله». والنوع الثاني من الذكر ما يقصد به انصباغ النفس. فالمشروع فيه الإكثار من الذكر، وما أكثر الأمثلة على هذا النوع من الذكر.... فحين يرمي الحاج الجمار يقصد به أنه يتظاهر بالعبودية لله تعالى. وإنما يقوم به امتثالا لأمره سبحانه من غير أن يكون للعقل والنفس حظ من هذا الفعل»(١٢).

* * *

الهوامش:

(١) حجة الإسلام، ص ٥١.
(٢) رواه أبوداود [٢٨٥٩]؛ والترمذي برقم [٢٢٥٦]؛ والنسائي برقم [٤٣٠٩] بلفظ: «من اتبع الصيد غفل».
(٣) رواه البخاري برقم [١٨٣٨]؛ ومسلم برقم [١١٧٧].
(٤) رواه البخاري برقم [٤٣٢٩].
(٥) حجة الله البالغة ٢/٩١.
(٦) أحكام إسلام، ص١٢٥.
(٧) ص١/٥١٥.
(٨) حجة الله البالغة ٢/٩٤وما بعدها.
(٩) أحكام إسلام ص ١٢٣.
(١٠) صحيح مسلم: ١٣٢٧-١٣٢٨].
(١١) أحكام إسلام ص ١٢٨.
(١٢) أحكام إسلام، ص ١٣٣.

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري

(تحريرًا في الساعة العاشرة صباحًا من يوم الأحد: ٢٠/شوال ١٤٤٣هـ الموافق٢٢/مايو ٢٠٢٢م).

من ظلال التفسير

بقلم: العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني رحمه الله
(١٣٠٥-١٣٦٩هـ/١٨٨٧-١٩٤٩م)

تعريب: أبو عائض القاسمي المباركفوري(*)

سورة المائدة

مدنية، وهي مئة وعشرون آية، وستة عشر ركوعًا

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ١

الإيمان الشرعي عبارة عن أمرين: المعرفة الصحيحة، والتسليم والانقياد. أي تصديق جميع أقوال الله والرسول وتسليمها وقبولها والاستسلام لها بالإخلاص. وبالنظر إلى هذا الشطر التسليمي يعتبر الإيمان في الواقع عهدًا قويًّا بقبول جميع القوانين والأحكام الإلهية وأداء حقوقها كلها، وكأن الإيمان الشرعي يحدد ويشرح الإقرار الكامل بربوبية الله تعالى الذي أخذ في عهد «ألست بربكم»، والذي تأصلت أبرز آثاره في الفطرة والطبيعة الإنسانية ليومنا هذا. ثم إن العهد المجمل الذي يتضمنه الإيمان الشرعي قدم القرآن والسنة النبوية تفاصيله. وحينئذ يعني ادعاء الإيمان أن العبد يتعهد في الأحكام الإلهية كلها سواء تعلقت بالله سبحانه وتعالى مباشرة أو بالعباد أو بالتربية الجسدية أو بالإصلاح الروحاني، أو بالمصالح الدنيوية أو الفلاح الأخروي، أو الحياة الشخصية أو بالحياة الاجتماعية أو بالصلح أو الحرب - بأنه وفي لمالك، وما أخذه النبي ﷺ من الصحابة من العهد- سواء كان فيما يتعلق بالإسلام والجهاد والسمع والطاعة أو بالخصال الطيبة الأخرى وأمور الخير - المتمثل في البيعة، يشكل صورة من هذا العهد الإيماني. وبما أن العبد قد حصل له المعرفة الصحيحة بجلال الله تعالى وجبروته، وشأنه من الإنصاف والانتقام، واليقين الكامل بصدق وعده، فإنه يتطلب منه أن يخاف عواقب الغدر والخيانة المدمرة، ويفي بجميع عهوده التي قطعها لله تعالى أو لعباده أو لنفسه وفاءً لايخل قيد شعرة بالوفاء للمالك الحق. وبهذا التقرير تجتمع جميع الأقوال المختلفة الواردة عن السلف في تفسير العقود- العهود-. ويزداد الخطاب بقوله:

(*) أستاذ الحديث والأدب العربي بالجامعة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في الآية لطفًا. وسبق في سورة النساء أن اليهود حرم عليهم بعض الطيبات بسبب ظلمهم ونقضهم العهد، قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ﴾ [النساء:١٦٠]، وفصلته سورة الأنعام. وأبيح لهذه الأمة الانتفاع بهذه الأشياء مع التوجيه إلى إيفاء العهد، أي أحل لكم بهيمة الأنعام من الجمل والبقرة والضأن والمعز وما يدخل في جنسها، وكذلك الأهلي والوحشي من الحيوانات - أليفها وبرّيُّها- مثلا: الظبي وحمار الوحش ونحوهما في كل حال إلا الحيوانات وفي الأحوال التي حرمها كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ نظرًا إلى مصلحتكم الجسدية أو الروحانية أو الأخلاقية.

فائدة: لعل المراد به: ما سبق بيانه في الآية الثالثة من هذا الركوع، أي قوله: (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ) إلى قوله: (ذٰلِكُمْ فِسْقٌ).

فائدة: لايباح للمحرم صيد البر، ويباح له صيد البحر. وما دام أن مراعاة حالة الإحرام بلغت مبلغًا يحرم معه الصيد، فلأن تكون مراعاة حرمة الحرم الشريف أكثر وأشد. فيحرم على المحرم وغيره صيد الحرم، كما يوحي إليه قوله: (لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللهِ).

فائدة: الله الذي خلق المخلوقات كلها، ثم وضعها في مراتب متفاوتة لكمال حكمته، وأودع كل نوع منها من الخواص والقوى الطبيعية المختلفة بما يوافق استعداده وقدرته، ووضع صورة مختلفة للموت والحياة، لاشك أن الله هو سبحانه وتعالى يستحق أن يتصرف في مخلوقاته كيف يشاء، فيحل ما يشاء لمن يشاء و متى يشاء بمقتضى علمه الكامل وحكمته البالغة (لَايُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُوْنَ).

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ ۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾

أي لاتنتهكوا حرمات ما جعِلَ علامات وآثارًا على عظمة الله تعالى ومعبوديته، منها: الحرم، وبيت الله، والجمرات، والصفا والمروة، والهدي، والإحرام، والمساجد والكتب السماوية ونحوها، من الحدود والفرائض والأحكام الدينية كلها يدخل في ذلك. ثم ذكر بعض هذه الشعائر الخاصة التي تتعلق بالمناسك، كما بين في الآية السابقة بعض الأحكام الخاصة بالمحرم.

فائدة: الأشهر الحرم أربعة، (مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ) [التوبة:٣٦]: ذوالقعدة وذو الحجة، والمحرم ورجب. وحرمتها أن يتمسك بالصلاح والتقوى فيها أكثر من غيرها، ويتجنب الشر والفساد أشد من

غيرها، وخاصة الحذر الشديد من إيذاء الحجاج، والتضييق عليهم، وصدهم عن بيت الله تعالى. فكأن هذه الأمور يجب الأخذ بها في الاثني عشر شهرا من السنة، ولكن يتأكد حرمتها في هذه الأشهر الحرم أكثر. وأما البدء بالهجوم على أعداء الإسلام فذهب الجمهور- وحكى ابن جرير الإجماع عليه – إلى أنه لم يعد محرمًا في هذه الأشهر، وسيأتي بيانه في سورة التوبة إن شاء الله.

فائدة: القلائد: جمع قلادة، والمراد بها العقد أو السير الذي يوضع علامةً في عنق الهدي، ليعلم الناس أنه هدي، فلايتعرضوا له، ويرى الرائي فيرغب في العمل بمثله. وأبقى القرآن الكريم على حرمة وعظم هذه الأشياء، وحرّمَ التعرض للهدي وشعائره.

فائدة: الظاهر أن هذا خاص بالمسلمين، أي احترموا من حج أو اعتمر من المسلمين المخلصين، و لاتضعوا عقبات في طريقهم. وأما المشركون الذين كانوا يتوجهون إلى بيت الله، فإن دخلوا في عمومه – فإنهم كانوا يزعمون أنهم يبتغون به فضل الله والتقرب إليه ورضاه- لزم أن نقول: إن هذا الحكم خاص بما قبل إعلان ما تضمنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُوْنَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هٰذَا﴾ [التوبة:٦٠].

فائدة: أي تحريم الصيد حال الإحرام لايبقى بعد التحلل منه.

فائدة: الشعائر التي حرمها الله تعالى وعظمها في الآية السابقة داسها المشركون واستهانوا بها في السنة السادسة من الهجرة، فخرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومعه نحو ألف وخمس مئة من أصحابه من المدينة يريدون العمرة، وحال المشركون دون أداء هذا الواجب الديني في الحديبية، فلم يرعوا حالة الإحرام، ولاحرمة الكعبة، ولا الشهر الحرام، ولا الهدي ولاالقلائد، وحقَّ للمسلمين أن يعربوا عن غيظهم وغضبهم وعداوتهم ضد قومهم الظالمين الوحشيين الذين استهانوا بشعائر الله تعالى وحالوا دون هذه الفريضة الدينية، وأن يحملهم سورة الانتقام على اتخاذ ما شاؤوا من الخطوات والإجراءات. ولكن الحب والبغض في الإسلام على قدرٍ معلوم. فأمرهم القرآن الكريم بضبط العواطف في مواجهة هذا العدو الظالم الطاغي. ويحمل الغلو في الحب أو البغض الإنسان على التعدي وتجاوز الحدود. ولذا قال: لايحملنكم أقصى العداوة على الاعتداء، ولايفوتَنَّكُم الإنصاف والعدل.

فائدة: فإن اعتدى أحد في سورة الانتقام، فالوجه إلى كفه ومنعه ألا يعينه الجماعة الإسلامية

على ظلمه وعدوانه؛ بل عليهم أن يتظاهروا بالبر والتقوى مجتمعين، ويمنعوا الناس من اعتدائهم.

فائدة: أي خوف الله تعالى أصل كل إحقاق وإنصاف، وكل خصلة حميدة. ولايؤمن أن يعم العذاب إذا لم يتعاونوا على البر، ولم يمسكوا عن التعاون على الإثم.

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾

ما حرمت هذه الآية أكله، أوله الميتة، وهي ما مات من الحيوانات - التي يجب تذكيتها- حتف أنفه من غير ذكاة. واحتقن دمه و حرارته الغريزية في دمه واحتبست فيه. ويؤرث ما فيه من السمية والنجاسة إلى عدد من الأضرار في البدن والدين. (ابن كثير). ولعله أعقب تحريم الميتة بتحرير الدم تنبيهًا على هذه العلة. ثم ذكر تحريم نوع خاص من الحيوانات، وهو الخنزير المعروف بأكله النجاسة و وقاحته في الآفاق.

ولعله بناءً على ذلك اعتبر الشرع الخنزير نجسًا لعينه مثل الدم، وبعد ما ذكر هذه الثلاثة التي تشتمل ذواتها على النجاسة المادية والخبث، تطرق إلى تحريم نوع آخر، أي الحيوان الذي يحل بذاته، ولكن سمي على اسم غير المالك الحقيقي نذرًا له، فيحرم أكله بناء على خبث النية وفساد العقيدة. ولايجوز قتل حيوان إلا بأمر خالقه ومالكه وباسمه، الذي يطرأ عليه الموت والحياة بحكمه وإرادته. وأما المنخنقة وغيرها من الحيوانات غير المذبوحة فتدخل في حكم الميتة. كما ألحق (مَاذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ) بـ(مَااُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللّٰه) وكان الناس يتعودون أكل هذه الحيوانات في الجاهلية، فتناوله بشيء من التفصيل والإسهاب.

فائدة: (الدَّمُ) أي المسفوح، قال تعالى: (اَوْ دَمًا مَّسْفُوْحًا) [الأنعام:١٤٥].

فائدة: ذكر قبل قليل التأدب مع الهدي واحترامه، والهدي هو الحيوان الذي يذبح نذرًا لأول بيت وضع لعبادة الله تعالى وحده، تقربًا إليه، وقابله بالحيوان الذي ذبح باسم غيره سبحانه أو في مكان غير بيت الله تعالى (موضح القرآن). وفي هذا الوجه الثاني ينوي صاحبه النذر لغير الله تعالى في الواقع، وإن سمى الله تعالى عند الذبح، وقال: بسم الله، الله أكبر. وبهذا التقرير اتضح الفرق بين (ما أهل لغير الله)، وبين

(ماذبح على النصب) (ابن كثير).

فائدة: حمل بعض المفسرين الأزلام على سهام القسمة، التي كانت تستخدم في الجاهلية لتوزيع لحوم الذبيحة وغيرها، وهو نوع من القمار، كما يسود اليوم تقاليد إلقاء الرسالة. ورجح الحافظ ابن كثير أن المراد بالأزلام هي سهام كان المشركون يتحاكمون إليها فيما يشكل عليهم مما يريدون ويفعلون. وكانت داخل الكعبة عند «هبل» - أكبر الأصنام-، كتب في بعضها: «أمرني ربي»، وفي بعضها: «نهاني ربي»، وهكذا كتبوا في كل سهم رجمًا بالغيب، فإذا أشكل عليهم أمر استخرجوا الأزلام، ونظروا فيها، فإن خرج ما كتب فيه «أمرني ربي»، شرع في أمره، وإن خرج على خلافه أمسك عنه، وعلى هذا القياس، وهو يشبه التشاور مع الأصنام والاستعانة بها. وكان هذا العمل قائمًا على الجهل المحض، والشرك، والتوهم، والافتراء على الله تعالى، وبناءً عليه شدد القرآن الكريم في غير آية حرمتها وغلظ أمرها. وبهذا التقرير تبين مناسبة ذكر الأزلام بعد النصب. وأما الميتة والدم والخنزير ونحوها فأدرجها في تحريم الأشياء البالغة كل مبلغ من الخبث والنجاسة، إشارة إلى أن نجاستها وخبثها المعنوي لايقل عن هذه الأشياء، كما يتبين ذلك من إطلاق الرجس في آية أخرى.

فائدة: نزلت هذه الآية حين تمهدت الأصول والقواعد الخاصة بكل شعبة من شعب الحياة وكل باب من علوم الهداية، وتم بيان الفروع والجزئيات بيانا مفصلا وجامعًا، لم يحتج معها أتباع الإسلام إلى قانون غير القانون الإلهي. وقد أخرجت تربية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عددًا يتجاوز الآلاف من الهداة والمعلمين الذين يعبدون الله تعالى ويستميتون في سبيله. ويمكن أن نطلق عليهم صورة مجسمة للتعاليم القرآنية، وكانت مكة قد فتحت، وكان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يوفون بعهد الله تعالى بكل وفاء، وأصبحت الأمة التي كانت تأكل الأغذية القذرة والميتة -تتمتع بتذوق الطيبات المادية و الروحانية. وتأصل احترام الشعائر الإلهية في القلوب، وتمزقت لحمة وسدا الظنون والأوهام والأنصاب والأزلام، وقد يئس الشيطان للأبد أن يُعبَد في جزيرة العرب. وفي مثل هذه الأوضاع قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]. أي يئس الكفار اليوم أن يصرفوكم عن دينكم القيم إلى الأنصاب والأزلام من جديد، ويعقدوا الآمال في قهر دين الإسلام، أو تحريف وتبديل في الأحكام الدينية، وقد نِلتُم اليوم الدين المتكامل الذي لايحتمل أبدًا شيئًا من الترميم

والتعديل. وتمت نعمة ربكم عليكم. فلايخشى بعده أن تضيعوه، وقد اختار الله تعالى لكم هذا الدين للأبد. فلايحتمل ورود ناسخ له، وحينئذ لاداعي لأن تتخوفوا من الكفار، إنهم لن يضروكم شيئًا. ويجب أن تخافوا دائما غضب المنعم الجليل والحقيقي الذي بيده نجاحكم وفلاحكم، ونفعكم وضرركم. فكأن قوله: (فَـــلَا تَخْـــشَوْهُمْ وَاخْـــشَوْنِيْ) [البقرة:١٥٠] تنبيه على أن الأمة الإسلامية لاتخاف الكفار ما خافت الله تعالى واتقته.

فائـدة: أي أخباره وقصصه على غاية من الصدق، وبيانه على كمال التأثير، وقوانينه وأحكامه على منتهى الوسطية والاعتدال. وتم تكميل وتعميم الحقائق- التي كانت غير مكتملة في الكتب السابقة والأديان الأخرى- بهذا الدين القيم. فلا يدخلها تغيير وتعديل. وأما ما ورد في الكتاب والسنة من الأحكام الخاصة بالحل والحرمة منصوصًا عليها ومعلَّلةً فيستمر إظهارها وبيانها دائمًا. وأما الزيادة والترميم فلا مجال لهما على الإطلاق.

فائدة: وأعظم المنن أنه سبحانه وتعالى أنزل عليكم القانون المتكامل والأبدي: الإسلام، وأرسل إليكم نبيًّا هو خاتم الأنبياء. ثم وفقكم للطاعة والاستقامة. وبسط لكم مائدة من الأغذية الروحانية والنعم الدنيوية. وهيأ ما فيه حفظ القرآن، وغلبة الإسلام، وإصلاح العالم.

فائدة: يعني من السفه انتظار دين بعد هذا الدين العالمي المتكامل. ولاسبيل إلى النجاة غير الإسلام الذي يعني التفويض والاستسلام.

تنبيه:

وإنزال هذه الآية (الْيَـوْمَ أَكْمَلْـتُ لَكُـمْ دِينَكُمْ) نعمة من النعم العظيمة. ولذا قال بعض اليهود لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يا أمير المؤمنين، آية في كتابكم تقرؤونها، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدًا، قال عمر: لقد اجتمع فيه عيدان للمسلمين». فإن هذه الآية نزلت في حجة الوداع بعرفة يوم الجمعة وقت العصر، و حول ناقة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكثر من أربعين ألفًا من الأتقياء والأبرار، ثم لم يمكث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الدنيا إلا ثمانين يومًا.

فائـدة: اكتملت سنة الحلال والحرام، فلايدخلها تغيير وتعديل، وأما المضطر الذي أصابه شدة الجوع والعطش، فلم يملك نفسه، وأكل أو شرب الحرام وقاية لنفسه، ولم يتجاوز حد الضرورة، ولم يقصد التلذذ (غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ) فإن الله تعالى يعفو بمنه وكرمه عن تناول المحرَّم. فبقي الحرام على حرمته، ولكن من تناوله وقاية لنفسه لم يعد مجرمًا عند الله تعالى، وهذا كذلك من شعبِ إتمام النعمة.

أساليب التعليم عند المسلمين

بقلم: الأستاذ محمد الحسيني عبد العزيز

شجع النبي -عليه الصلاة والسلام- المسلمين على طلب العلم، وامتدح من يتعلم القرآن الكريم والفقه، وأثنى على من يعلم جيرانه، وبعث الرسول إلى يثرب مصعب بن عمير بن عبد مناف ليعلم الاثني عشر مسلمًا من الأنصار ممن بايعوه في العقبة الأولى أمور دينهم، ويقرأ عليهم كتاب الله، ويفقههم في أمور الشريعة، ويؤمهم في صلاتهم، كما استخلف عتاب بن أسيد على أهل مكة ليعلمهم القرآن، كما أرسل عمرو بن حزم الخزرجي إلى نجران ليفقه أهلها في الدين ويعلمهم القرآن المبين، وبعث أبا عبيدة عامر بن الجراح إلى بلاد اليمن ليعلم أهلها ممن أسلموا أصول الدين وقراءة القرآن.

وما أعظم قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ففي هذه الآية الكريمة أبلغ دلالة على فضل العلم وأهميته، كما امتدح سبحانه أهل العلم وفضَّلهم على غيرهم درجات. وكان هذا حافزًا للمسلمين على مواصلة العلم وطلبه مهما لاقوا من صعوبات وما صادفوا من عقبات؛ لأن العلم ينير العقول، ويشرح الصدور، ويرفع من مستوى الإنسان، ويجعله قادرًا على أن يميز بين الخير والشر. وهكذا وجهت دعوة الإسلام العرب إلى التفقه في الدين وطلب العلم، وتنافسوا في هذا السبيل، ورحلوا من مكان إلى مكان للاستماع للعلماء والمحدثين، فصقلت عقول العرب المسلمين واستنارت أفئدتهم، ونمت مواهبهم، وازدادوا ثقافةً وعلمًا فكان لهذا أكبر الأثر في تمدنهم وتحضرهم.

وكان القرآن الكريم هو المصدر الأول لعلوم اللغة والدين فأقبل المسلمون على قراءته وفهم معانيه والاقتباس من محكم آياته ومن أساليبه البليغة وعباراته الفصيحة مما رفع مستوى العقول العربية وزاد من ثقافة العرب ووسع مداركهم؛ إذ عرفوا كثيرا من قصصه، فعلموا أخبار الأمم والشعوب السابقة، وأسهمت دراسة الكتاب الحكيم في تقدم علوم النحو والبلاغة وظهرت طبقة من القراء والمفسرين الذين فهموا تفسير القرآن وأسباب نزوله كما أصبح البعض قادرًا على استنباط الأحكام التي كانت الخطوة الأولى لنشأة علم الفقه وبحوثه.

كما اهتم المسلمون فيما بعد بجمع الحديث

النبوي الذي يضم شرحًا للعبادات وتفصيلا لما جاء في القــرآن مــن أحكــام المعــاملات والتــشريع والجنايات، كما أن الحديث حوى كل ما يتعلق بحياة النبي في مكة وحياته في المدينة بعد هجرته إليها وغزواته، وأعمال الخلفاء والفتوحات التي تمت في عهدهم مما عرف بالسيرة والنبوية وسيرة الخلفاء الراشدين وكان المنطلق لعلم التاريخ والأساس الذي سار عليه المؤرخون في كتب المغازي التي اتبعت نظام الرواية بنفس طريقة الحديث.

وهكذا كانت علوم الدين أول العلوم التي اشتغل بها المسلمون، وكان القرآن تدوينه وتفسيره والحديث وروايته والفقه أول العلوم التي مارسها المؤمنون، وجاء بعدها الاهتمام بعلوم اللغة من نحو وصرف وبلاغة. وظل الحال كذلك في العصر الأموي حيث كانت مسائل العلم تدور حول القرآن وتفسيره، وعلم الحديث وشرحه؛ بل إن علم النحو نفسه جاءت كتابته ووضع قواعده بعد أن كثر اللحن بين الناس.

أما في العصر العباسي فقد ظهرت إلى جانب علوم الدين واللغة التي عرفت باسم العلوم النقلية علوم مستحدثة عرفت بالعلوم العقلية كدراسة الطب والكيمياء والطبيعة والفلك وغيرها، وقد أوضح ابن خلدون في مقدمته هذين النوعين من العلوم بقوله: «إن العلوم صنفان: صنف طبيعي للإنسان يهتدي إليه بفكره، وصنف نقلي يأخذه عمن وضعه. والأول هي العلوم الحكمية الفلسفية، وهي التي يمكن أن يقف عليها الإنسان بطبيعة تفكيره. ويهتدي بمداركه البشرية إلى موضوعاتها ومسائلها، وإنماء براهينها، ووجوه تعليمها، حتى يوقفه نظره وبحثه على الصواب من الخطأ فيها من حيث هو إنسان ذو فكر، والثاني هي العلوم النقلية الوضعية، وهي كلها مستندة إلى الخبر عن الوضع الشرعي، ولا مجال فيها للعقل إلا في إلحاق الفروع من مسائلها بالأصول».

وقد وصلت إلى العرب العلوم العقلية متطورة منظمة فلما ترجمت كادت تكون مكتملة، ولم يكن أمام المؤلفين إلا دراسة هذه العلوم وتمحيصها والعمل على تحسينها بما توصلوا إليه من تجربة ودراسة وتطبيق. وكان التطبيق والتجربة وامتحان الحقائق عمليًّا هو طريق علماء المسلمين في البحث، وبهذا سبقوا المفكرين الأوروبيين ووضعوا أصول العلم والدراسات التجريبية ونقدوا الأخطاء وتوصلوا إلى الصواب.

المساجد معاهد للعلم:

وكان مسجد الرسول في المدينة مكانًا للدراسة كما ظل كذلك أيام الخلفاء الراشدين والأمويين

حيث كان الفقهاء يحدثون، ويفسرون آيات الكتاب المبين، ويروون الأحاديث، ويشرحون النصوص للمسلمين. وكان ربيعة الرأي يجلس في مسجد النبي بالمدينة، ويلتف حوله التابعون. وكذلك كان الحال في مسجد البصرة حيث كان يجلس الحسن البصري ويشرح بأسلوب قصصي، وبجانب حلقات الدين كانت هناك حلقات اللغة لمن يريد أن يجيد ويتقن اللغة العربية، وقد حدث هذا في مسجد عمرو بالفسطاط بمصر.

وأصبح مسجد عمرو بن العاص في مصر المدرسة الأولى لتعليم أصول الدين وعلومه ففي رحابه جاء الصحابة والتابعون ليشرحوا ويفسروا القرآن، ويوضحوا الأحكام الشرعية، وعلى رأسهم عبد الله بن عمرو بن العاص، ويزيد بن حبيب والليث بن سعد ومحمد بن إدريس الشافعي ممن أخذ عنهم أهل مصر أمور دينهم.

ولما أسس جوهر الصقلي الجامع الأزهر ليكون مركز الدعوة الفاطمية كان المسجد معهدًا تعقد فيه حلقات العلم ودروسه، وكلف العزيز بالله الخليفة الفاطمي وزيره يعقوب بن كلس ليرعى العلم فصرف الوزير كل جهوده ليصبح الأزهر أعظم المساجد والمعاهد العلمية في عصره، ولينافس بغداد ومعاهدها العلمية ورصد الأموال للدارسين والأساتذة ووفر لهم العيش الكريم وألحق بالجامع مكتبة فخمة.

كما أصبحت دار العلوم التي أنشأها العزيز بالله مكانا للبحث العلمي.

وضمت مكتبة الأزهر أنفس المخطوطات من كل مكان فانصرف الطلبة والباحثون للدراسة والتأليف مما ظهرت آثاره واضحة في الإنتاج الأدبي والتاريخي الذي ظهر فيما بعد في إنتاج الموسوعات الأدبية مثل صبح الأعشى في صناعة الإنشاء للقلقشندي، والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي، والخطط للمقريزي الذي يعتبر مرجعًا تاريخيًّا وجغرافيا ومعماريا عن مساجد مصر وآثارها ومدارسها وعمائرها.

واعتمد نظام التدريس في الأزهر على نظام الحلقات حيث كان الأستاذ يقف ويحاضر أمام تلاميذه ويبدأ النقاش والجدل، ويعهد لكل طالب بكتابة بحث ودراسة موضوع معين. وهذا ما يعرف في أيامنا بالرسائل الجامعية للماجستير والدكتوراة فكان الجامع الأزهر أول جامعة دينية وعلمية تبتكر هذا الأسلوب وتصبح قبسًا للجامعات في العصور الوسطى بأوروبا.

وقد حاضر في هذا المعهد العتيق نوابغ الأساتذة وفحول العلماء أمثال العالم المؤرخ ورائد

علم الاجتماع ابن خلدون، كما تولى التدريس به عبد اللطيف البغدادي الرحالة والمؤرخ المشهور الذي قال: إنه ألقى به دروسًا في الطب، وشارك في هذه المحاضرات أئمة الحديث أمثال الشافعي والبخاري والغزالي ومن الشعراء أبو نواس وأبو تمام وأبو الطيب المتنبي وغيرهم.

وقد انتعشت الحركة العلمية في مصر وأينعت بسبب هجرة كثير من علماء المشرق خاصة بعد سقوط بغداد في يد المغول كما نزح إلى مصر علماء من الأندلس وقد حضر هؤلاء وحملوا إلى مصر مؤلفاتهم وأفكارهم فأسهموا في تطوير النهضة الأدبية والفكرية في البلاد.

وتعتبر مكتبة الفاطميين لا نظير لها في العالم حيث كانت تضم زهاء مليون وست مئة ألف مجلد ومن بينها ستة آلاف وخمس مئة كتاب في الرياضيات وثمانية عشر ألف في الفلسفة.

هذا بخلاف المكتبة التي أسسها الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي والتي كانت تشغل ثماني عشرة قاعة للدراسة والاطلاع.

ومن أعظم علماء الطبيعة الذين ظهروا في مصر الحسن بن الهيثم الذي استدعاه الخليفة الحاكم إلى مصر لينظم فيضان النيل والذي ابتكر نظريته الخاصة بالأشعة والانكسار التي تعتبر نقطة تحول في أبحاث العالم في علم الضوء كما اكتشف أن جميع الأجرام السماوية ومن بينها النجوم الثابتة ترسل نورها عدا القمر الذي يستمد نوره من الشمس. وأدرك هذا العالم المصري أخطاء علماء اليونان وقال: إن العين لا ترسل أشعة بصرية بل العكس هو الصحيح؛ فإن الجسم المرئي هو الذي يرسل أشعة إلى العين وأن عدسة العين هي التي تحوله. وهكذا أثبتت الأبحاث صحة نظرية ابن الهيثم الذي يعتبر واضع أساس النظرية التجريبية وقد سبق بهذا العالم الأوروبي «روجر بيكون» الذي ينسب إليه الأوروبيون وضع الأبحاث التجريبية.

ولم تقتصر أبحاثه على هذا، بل أوجد رأيه الخاص بمصادر الضوء وأوجد دراسةً خاصةً بطبيعة إلقاء الظل كما سماها وأول تجربة قام بها هي الخاصة بجهاز يشبه آلة التصوير الذي أثبت عن طريقه استقامة خطوط الضوء وأوجد تعليلا لانكسار الإشعاعات عندما تمر خلال وسيط كالهواء وطبق معلوماته على أجهزة البصريات وحسب الانعكاس في قطاع المرآة الكروية واهتدى إلى قوانين كشاف الضوء ومعظم نظرياته في الطبيعة ظلت مسيطرة على هذا العلم في أوروبا حتى القرن الحالي.

كما ازدهرت الحركة العلمية في مصر أيام الأيوبيين والمماليك إذ وجه صلاح الدين الأيوبي

عنايته إلى إنشاء المدارس السنية لتولي تعليم الناس الفقه السني، وكانت هذه المدارس هي الطريق إلى الدراسات العليا في المعاهد العلمية كالأزهر الذي أصبح جامعة لدراسة الشريعة الإسلامية والمذاهب الأربعة المعروفة إلى جانب قيامه بحفظ التراث الإسلامي وحمل مشعل الثقافة الدينية واللغوية وعلوم التاريخ والجغرافيا والطبيعة والفلك والأحياء وغيرها.

الإجازات العلمية:

وفي حلقات المساجد الجامعية تكون المرحة النهائية للدراسة حيث تعقد بها حلقات في الفقه وثانية في اللغة وثالثة في النحو ورابعة في الحديث وللمتعلم أن ينضم إلى أي حلقة وله أن يختار أي أستاذ يشاء، فإذا وجد الطالب في نفسه المقدرة جلس مكان المعلم ليناقشه العلماء فإذا أثبت جدارة وكفاية صار من حقه أن يرأس إحدى الحلقات.

ولم تكن الشهادات العلمية معروفة في صدر الإسلام فكان الطالب يسعى لطلب العلم إذا أتيحت له فرصة من فراغ وإذا كان يحترف العلم واظب على حضور حلقات الدرس ليكون جديرًا بمهنة المعلم التي يسعى للوصول إليها والتي تحتاج منه لعلم ومنطق ومقدرة للوقوف أمام الطلبة والإجابة على أسئلتهم المحرجة وإذا استطاع هذا حق له أن يتصدر حلقات العلم وعندما يتأكد المدرس من استيعاب الطالب للعلم كتب له شهادة على الورقة الأولى أو الأخيرة من الكتاب الذي عهد إليه بدراسته يبين فيها أن الطالب قد أتم قراءة الكتاب وأجاز له تدريسه.

وتدل الإجازة العلمية على المستوى العلمي الذي وصل إليه الطالب ولا تمنح الإجازة إلا لذوي المعرفة الذين تهيّئ لهم إجازة تدريس الكتاب المجاز به أو رواية الحديث المأذون لهم في روايته، ويشترط للمجيز أن يكون عالمًا بما يجيز وثقة في دينه، معروفًا بالعلم وأن يكون المستجيز من أهل العلم متسمًا بسمة حتى لا يوضع العلم إلا عند أهله.

هذه هي الأساليب العلمية التي بدأت بالمساجد والقصور والمدارس والتي كانت قبسًا للجامعات الأوروبية التي سارت في نظامها على هذه الطريقة خاصة حينما نشأت الجامعات في إنجلترا.

وبهذا كان المسلمون هم رُوّاد الحركة العلمية والبحث وواضعي أساس النظام التجريبي في البحث العلمي التي أدت إلى النهضة العلمية التي ينعم بها الإنسان، وأسهمت في تنمية المعرفة وازدهار العلوم والفنون وأدت إلى التقدم العلمي الذي وصلت إليه البشرية في العصر الحديث.

من تـاريخ الجـامعة الإسلامية : دارالعلوم/ ديوبنـد

(الحلقة ١٠١)

بقلم: **الأستاذ/ سيد محبوب الرضوي الديوبندي -رحمه اللّه-**
(المتوفى ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م)
ترجمة وتعليق: **محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري**(*)

تراجم خريجي دارالعلوم/ديوبند:

٢٠- الشيخ عبد الرحمن الأمروهوي:

ولـد نحـو عـام ١٢٧٧هـ في مومبـاي، وحفـظ القرآن الكريم في مكة المكرمة، وتلقى مبادئ العلم بهـا. وأخـذ العلـوم عـن الـشيخ أحمـد حـسن الأمروهـوي، وانتهى بـه المطـاف إلى ديوبنـد، فأخـذ بعـض الـدروس في التفـسير والحـديث عـن الإمـام محمد قاسم النانوتوي. وبحكم استفادته العلمية من هـذين الـشيخين غلـب عـلى الـشيخ عبـد الـرحمن الأمروهــوي لــون المتكلمــين في دروس التفــسير والحـديث. ويتجلى في شخصيته النبوغ في كـل علـم وفن وخاصة علم الكلام والعقائد في ثنايا دروسه، وكـان كثـيرًا مـا يـشير إلى علـوم الإمـام النـانوتوي ومعارفه.

وهـو مـن أواخـر تلامـذة الإمـام النـانوتوي، وكـان لـه ملكـة خاصـة في التفـسير، قـام بتـدريس العلـوم الدينيـة (٦٠) عامًـا في مدرسـة شـاهي/ مـراد آبــاد، ومومبــاي، والجامعــة الإســلامية/دابيــل، والجامعة الإسلامية / أمروهه. فكثر عدد الآخذين عنه والمستفيدين منه.

وقام بإلقاء بعض دروس التفسير والحديث في دارالعلـوم/ديوبنـد مـدةً يـسيرةً عـام ١٣٦٢هـ، وفي نهايــة المطــاف ولي مــشيخة التفــسير في الجامعــة الإسـلامية/أمروهـه. وكـان مـن العلـماء البـارزين في الحديث والتفسير. وله حاشية على تفسير البيضاوي بالإضـافة إلى هـوامش عـلى كـل مـن «المطـول» و «مختـصر المعـاني». تـوفي وهـو ابـن تـسعين عامًـا في ٢٣/جمـادى الآخـرة عـام ١٣٩٧هـ. ودفـن بجـوار شيخه أحمد حسن الأمروهوي.

٢١- الشيخ أشرف علي التهانوي رحمه الله:

ولـد عـام ١٢٨٠هـ. وأرّخـوا لاسـمه «كـرم عظيم». كـان ينتمـي إلى العائلـة الفاروقيـة في «تهانـه بهون». قرأ القرآن الكريم حفظًا على الحافظ حسين علي. وتلقى مبادئ الفارسية والعربية في وطنه على

(*) أستاذ الحديث واللغة العربية وآدابها بالجامعة.

الشيخ فتح محمد التهانوي أحد أوائل الخريجين من دارالعلوم/ديوبند. والتحق بدارالعلوم/ديوبند في أواخر عام ١٢٩٥هـ لاستكمال العلوم. وتخرج منها عام ١٢٩٩هـ. وتجود على المقرئ محمد عبد الله المهاجر المكي[١] في مكة المكرمة.

تجلت فيه معالم الذكاء والفطنة منذ صباه. و ولي رئاسة التدريس أولا في مدرسة فيض عام/كانفور سنة ١٣٠١هـ، ثم ولي الرئاسة في مدرسة جامع العلوم. وبلغ صيت دروسه للحديث النبوي في «كانفور» الأطراف النائية والقاصية، فتهافت عليه الطلبة منها. واستقال عام ١٣١٥هـ من وظيفته، ونزل في الخانقاه الإمدادية[٢] متوكلا على الله تعالى. ومن هنا قام – إلى آخر نفس من حياته- بخدمات مشكورة لامثيل لها في الشخصيات الأخرى في ذلك العصر، في الدعوة إلى الدين، وتزكية النفس، والتصنيف والتأليف. وكان على علم متأصل، وعميق للغاية، يشهد به كل صفحة من صفحات مؤلفاته، ولايخلو ناحية من نواحي الدين من مؤلفاته. وكان الشيخ التهانوي لايدانيه أحد من المؤلفين الهنود في وفرة المؤلفات ونفعها. ويبلغ عدد مؤلفاته الصغيرة والكبيرة نحو ثلاث مئة وخمسين كتابًا. وعلاوة على ذلك له أكثر من ثلاث مئة موعظة وتذكير، منشورة. وقلما تجد بيتًا من بيوت المثقفين في شبه القارة الهندية يخلو من تصانيفه ومؤلفاته. وبلغ كتابه «بهشتي زيور» من الشعبية والقبول أنه يطبع بالآلاف في مختلف الأماكن، وتصل إلى أيدي الناس. ولانغلو لو قلنا: لايطبع كتاب في اللغة الأردية بعدد أكبر منه. وتم نقله إلى مختلف اللغات، ومن خصائص الشيخ التهانوي أنه لم يكسب من كتبه فلسًا واحدًا، ولم يحتفظ بحقوق طبع شيء من مؤلفاته، فمن شاء طبعها. وترجمته لمعاني القرآن الكريم على قمة السلاسة واليسر والعلم. ومن أعماله العبقرية في التفسير كتابه «بيان القرآن». كما أمر الشيخ بجمع وترتيب تراث علمي ضخم في مستدلات الحنفية من الحديث النبوي الشريف، مما لامثال له.

بايع شيخَ المشايخ الحاج إمدادَ الله المهاجر المكي، ونال منه الإجازة والخلافة. وامتد نطاق بيعته وإرشاده كثيرًا، واستفاد الآلاف المؤلفة من الناس في شبه القارة الهندية وخارجها من إصلاحه وتربيته. واشتهر كثيرًا بـ«حكيم الأمة». وانتفع مئات الآلاف من الناس من تصانيفه ومواعظه في علمهم وعملهم، واستفاض منه فئة كبرى من عامة الناس وخاصتهم عن طريق البيعة والإرشاد منه ما يعز مثيله في ذلك العصر. ويُقَدَّرُ سمو مكانته ومنزلته بأن كبار العلماء والفضلاء في شبه القارة الهندية قبل التقسيم انضموا إلى حلقة بيعته. وكان الشيخ ينبوعًا من العلم والحكمة والمعرفة والطريقة، استقى منه المسلمون في شبه القارة الهندية نصف قرن من الزمان. ولايخلو جانب من جوانب الدين إلا تجلى

فيه خدماته المشكورة خطابةً وتأليفًا. يقول الشيخ السيد سليمان الندوي:

«كان ينظر في كل ناحية من نواحي حياة الأمة الإسلامية العلمية والعملية، واهتم الشيخ بإصلاح الناس وتربيتهم: صبيانهم إلى شيوخهم؛ ونسائهم إلى رجالهم؛ وجهلتهم إلى علمائهم؛ و عامتهم إلى صوفيتهم، ودراوشتهم وزهادهم؛ وفقرائهم إلى أغنيائهم، ورصد الشيخ مختلف المناسبات بعين من عقاب: من الولادة والزوج، والحزن، والتجمعات. فوزنها كلها بميزان الشرع و الدين، وميز الغث من السمين، وكسح عقبات التقاليد والبدع والخرافات والمفاسد عن الطريق و أرشدهم إلى الصراط المستقيم. فحيث شعر بالنقص والبتر في شيء من الدعوة إلى الدين، و التعليم والسياسة، والاجتماع، والأخلاق والعبادات، والعقائد من منظور الدين الخالص، قام بإزالته وتصفيته، وهيأ عنده الأسباب اللازمة للمستجدات الفقهية، وحاجات المسلمين التي برزت على الساحة مع متطلبات العصر، وقام – بصفة خاصة– بتجديد الإحسان والسلوك، الذي يطلق عليه «التصوف»، ووضع بين يديه صورة صحيحة للدين، فجعلها محكًّا لتفادي ما تسرب إلى حياة المسلمين الحاضرة من العيوب والنقائص. وأنفق حياته كلها في إصلاحها وتعديلها. وحاول الشيخ جاهدًا لتحويل صورة حياة المسلمين الحاضرة على وفق ما يتجلى في الدين الحق[٣].

قد جمع الله تعالى فيه الاستغناء والسخاء والجود، وسمعتُ على لسان والدي – أحد أصحاب الشيخ التهانوي الذين ارتفعت الكلفة بينه وبينهم – قصة ترجع إلى أيام نزوله في «كانفور»، وبما أن هذه القصة لم يطلع عليها عامة الناس، فلزم ذكرها والإشارة إليها. وهي أن الشيخ التهانوي كان يتقاضى راتبًا قدره خمس وعشرون روبيةً شهريةً من مدرسة جامع العلوم/كانفور. فكان يقتطع منها خمس روبيات ويدفعها إلى حضرة والدي رحمه الله ليتولى صرفها إلى الطلاب. وكان يؤكد حين يدفعها إليه على إخفاء الباذل لهذه الروبيات – وهو الشيخ التهانوي–، وكان ذلك سرًّا من الأسرار، ولم يطلع عليه غير والدي رحمه الله مادام الشيخ التهانوي على قيد الحياة. وإنما قص هذه القصة علي بعد أن توفي الشيخ التهانوي، وهو يثني عليه.

كانت حياة حكيم الأمة رحمه الله على غاية من الضبط، ووضع لكل عمل من الأعمال موعدًا يخصه، فيقوم به في حينه، وكانت ترد إليه رسائل المتوسلين والمريدين بكثرة كاثرة، وكان الشيخ التهانوي يسجل الإجابات عنها جميعًا بخط يده في مواعيدها المحددة.

انتقل من هذه الدار الفانية إلى الدار الباقية في ١٦/رجب عام ١٣٦٢هـ، ودفن بجوار الحافظ ضامن في حديقته التي وقفها على الخانقاه الإمدادية.

٢٢- الشيخ عبد المؤمن الديوبندي:

من أعضاء العائلة العلمية الشهيرة في ديوبند، وهو من عائلة الشيوخ العثمانيين. وكان سِلف شيخ الهند محمود حسن الديوبندي. التحق بدارالعلوم/ ديوبند عام١٢٩٢هـ، وأكمل دورة الحديث الشريف عام ١٢٩٩هـ على الشيخ محمد يعقوب رحمه الله، وأناط الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي برأسه عمامة التخرج برفقة الشيخ أشرف علي التهانوي في الحفلة الرابعة عام١٣٠١هـ.

وبناء على طلب أهل «ميروت» توجه إليه الشيخ عبد المؤمن، وقضى حياته كلها فيها مدرسًا ومفتيًا. وولي أولا رئاسة التدريس في المدرسة القومية، ثم تولى رئاسة التدريس في مدسة إمداد العلوم/ «ميروت».

كان على قمة الذكاء والفطنة وسعة النظر، وكان يستظهر كتب الحديث والفقه والتفسير في المرحلة العليا في آخر عمره. كانت دروسه على شاكلة دروس شيخه محمد يعقوب موجزة جامعة نافذة إلى القلوب. وكان من أصحاب النسبة. قضى حياته متوكلا على الله تعالى. وانتفع الناس كثيرًا في «ميروت» من علمه. وقرأ عليه الشيخ عاشق إلهي – صاحب ترجمة معاني القرآن الكريم- عن آخره، ومن تلامذته كل من الشيخ إعزاز علي الأمروهوي، والشيخ سراج أحمد الميروتي أيضًا. كما تتلمذ عليه الشيخ القاضي زين العابدين سجاد الميروتي. وكان يتولى اختبار المرحلة العليا في دارالعلوم/ديوبند.

٢٣- الشيخ الحكيم جميل الدين:

أصله من «نغينه» من أعمال «بجنور»، تلقى العلم في دارالعلوم ديوبند عام١٢٩٨هـ و١٢٩٩هـ، وهو من مشاهير الأطباء في دهلي، وكان يتولى الاختبار في الكلية الطبية. وظل مدة طويلة عضوًا من أعضاء المجلس الاستشاري بدارالعلوم/ ديوبند. وكان يواظب على الأوراد والوظائف والذكر والشغل بجانب إدارته عيادة طبية. وكان على إتقان وتأصيل من العلم والمعرفة. أقام في أول أمره في «غازي فور» ثم استوطن دهلي في آخر عمره.

وكان من أساتذة الشيخ محمد إبراهيم البلياوي. كما ولي الحكيم جميل التدريس في مدرسة في «جونفور» مدة يسيرة. كان له تضلع من الطب بجانب العلوم الدينية، وتطبب على الحكيم عبد المجيد خان الدهلوي. ومن تلامذته الحكيم محمد أجمل خان. واستمر تدريس العلوم الدينية والطب مدة حياته.

لبى نداء ربه بعد الفراغ من صلاة التهجد ليلا في ١٨/صفر عام ١٣٥٥هـ. ومن ذكرياته الصيدليةُ الصديقية/دهلي، التي تواصل نشاطاتها بإشراف نجله البارع الشيخ الحكيم عبد الجليل.

٢٤- الشيخ الحافظ محمد أحمد الديوبندي:

هو نجل الإمام محمد قاسم النانوتوي قدس

سره. ولــد عــام ١٢٧٩هـ=١٨٦٢م في «نانوتــه». وحفــظ القــرآن الكــريم، ثــم أرســله والــده إلى «كلاؤتهي» من أعمال «بلند شهر» لدراسة مبادئ العلم. ومن المدارس التي أقامها الشيخ النانوتوي مدرسة منبع العلوم/كلاؤتهي. وكان زوجه أخت الشيخ عبد الله الأنبيثوي يدرس فيها. ثم تحول إلى مدرسة شاهي/مرادآباد لتلقي المزيد من العلم. وكان يدرس بها أحد تلامذة الشيخ النانوتوي الأجلة وهو الشيخ أحمد حسن الأمروهوي. فقرأ عليه الشيخ أحمد كتب مختلف العلوم والفنون، ثم تحول منها إلى ديوبند، وتتلمذ على شيخ الهند محمود حسن الديوبندي، وقرأ بعض الدروس في سنن الترمذي على الشيخ محمد يعقوب النانوتوي عام ١٣٠٠هـ. ثم سار إلى «كنكوه»، واستكمل بها دورة الحديث الشريف على الشيخ الكنكوهي رحمه الله. وقرأ بها الجلالين والبيضاوي. وتم تعيينه مدرسًا في دارالعلــوم/ديوبنــد عــام ١٣٠٣هـ=١٨٨٥م. وتيسرت له فرصة تدريس كتب مختلف العلوم والفنون. واستقال الحاج محمد عابد من إدارة دارالعلوم/ديوبند عام ١٣١٠هـ=١٨٩٢م، خلفه اثنان من المدراء واحدًا بعد واحدٍ، ولم تستمر إدارتهما أكثر من سنة واحدة. وتسرب الخلل إلى نظام دارالعلوم/ديوبند من جراء التعديل الإداري كل عام. فاختار الشيخ الكنكوهي عام١٣١٣هـ= ١٨٩٥م الحافظ أحمد لإدارة دارالعلوم/ديوبند. كان الحافظ محمد أحمد يملك ملكةً إداريةً قويةً وجاهًا ومكانــةً ســاميةً. فــسرعان مــا تغلــب عــلى نظــام دارالعلوم/ديوبند، وثبتت أهليته مئة في المئة لما كانوا يرجون من وراء توليته إدارة دارالعلوم/ ديوبند. وكان شيخ الهند يولي كونَ الحافظ أحمد نجلا لشيخه أهمية أكثر من كونه شيخا له -للحافظ أحمد-. وكان يتأدب في جلوسه بين يديه في مكتب الإدارة.

وشهدت دارالعلوم/ديوبند إبان إدارته رقيًّا ظاهرًا ومعنويًا كبيرًا لم يسبق له مثيل. ورغم أن دارالعلوم كانت تحول «دارالعلوم» معنى إلا أنها تحولت من مدرسة إلى «دارالعلوم» في عهده بالنظر إلى أبنيتها وملامحها البارزة. وتم تشكيل الأقسام والجهات المختلفة، كما امتد نطاق تأثيرها أيضًا امتدادًا غير عادي. فكانت دارالعلوم تخطو خطوات حثيثة كل يوم على جميع المستويات. ويعتبر عهد إدارته الممتد على(٣٥) سنة - عهدًا ذهبيًّا لامعًا في الرقي والازدهار في تاريخ دارالعلوم/ديوبند.

وفي عهده أنشئ مبنى دارالحديث، وهو أول بناية من نوعه في طول الهند وعرضها. كما بدؤوا بناء سكن جديد للطلاب يسمى «الدارة الجديدة»، بالإضافة إلى المسجد والمكتبة؛ فكل ذلك يرجع إلى عهد الحافظ محمد أحمد. ولاتزال ذكرى الحفلة الشاخة التي انعقدت عام ١٣٢٨هـ=١٩١٠م لإناطة العمائم برؤوس الخريجين- حية في القلوب

إلى الآن. وقد تم إناطة عمائم التخرج برؤوس ألف خريج فصاعدًا. وقد انعقدت هذه الحفلة بإدارة الحافظ محمد أحمد.

ونال لقب «شمس العلماء» من الحكومة البريطانية، ولكنه كره أن يكون ممن يحملون لقبًا حكوميا نظرًا إلى مذهب دارالعلوم الحر، فلم يمض عليه إلا قليل حتى رد الخطاب.

ولم يتخلف عما بدأ به حياته من التدريس والإفادة يومًا من حياته. وكان يدرس – بنَهَمٍ وشوق كبيرين- كتاب مشكاة المصابيح، والجلالين، وصحيح مسلم، وابن ماجه، ومختصر المعاني، ورسالة «مير زاهد». وكانت دروسه سلسلة نزيهة منتظمة للغاية. وكان له تمكن كبير من علوم والده الخاصة.

وكان من المفترض أن يزور «نظام دكن» دهلي عام ١٣٤٧هـ=١٩٢٨م، فسافر إلى حيدرآباد ليذكره بزيارة ديوبند. فمرض بها بعد ما وصل إليها، وخرج من حيدر آباد قافلا إلى ديوبند، ولم يتجاوز القطار حدود حيدرآباد إذ لفظ الشيخ محمد أحمد نفسه الأخير بالقرب من محطة «نظام آباد». فكان ممن مات في السفر فهو شهيد. وذلك في شهر جمادى الأولى عام ١٣٤٧هـ= ١٩٢٨م. وأبرق نظام دكن بأن يحمل جسده إلى حيدر آباد، فنقل جثمانه في التابوت إليها، وتم دفنه بنفقات من صلب مال «نظام دكن» في مقبرة خاصة في حيدرآباد، يطلق عليها «خطة الصالحين» في اليوم التالي ٤/جمادى الأولى. ويُدفَنُ في أحشاء هذه المقبرة كبار العلماء والمشايخ والشخصيات البارزة في حيدر آباد.

قام الحافظ محمد أحمد بخدمة دارالعلوم/ ديوبند (٤٥)سنة، قضى عشرة أعوام أولى في التدريس والإفادة، وأنفق (٣٥) سنة في الإدارة.

* * *

الهوامش:

(١) وأول علماء القراءة والتجويد في دارالعلوم/ديوبند: المقرئ عبد الوحيد خان من تلامذة المقرئ عبد الرحمن الذي هو أخذ القراءات من المقرئ عبد الله هذا. وكان المقرئ عبد الله من أساتذة التجويد في المدرسة الصولتية في مكة المكرمة.

(٢) ليست الخانقاه الإمدادية عبارة عن بناء بمفرده، وإنما هي عبارة عن مسجد في الشمال الغربي من قصبة «تهانه بهون»، وكان يطلق عليه أولا «مسجد البير محمد»، وفي الجانب الجنوبي من المسجد بناء ذو ثلاثة أبواب، كان بها حجرة، اتخذ شيخ المشايخ الحاج إمداد الله قدس سره من هذا المسجد مقرا له، وكان يزود طلاب المعرفة منه بفيوضه وبركاته. وهذه الخانقاه التاريخية التي كانت منطلق الاستعدادات اللازمة للجهاد ضد الإنجليز في «شاملي»، وقد سبق بيانه وتفصيله. ثم عرفت هذه الخانقاه بالخانقاه الإمدادية نسبة إلى الشيخ إمداد الله المهاجر المكي. وكان الشيخ محمد- أحد مشاهير علماء تهانه بهون- ينزل في هذا المسجد. ومن هذه الخانقاه- الحجرة والبناء ذي ثلاثة أبواب- فجر الشيخ حكيم الأمة التهانوي رحمه الله ينابيع الشريعة والطريقة. واستمرت فيوضه نحو نصف قرن من الزمان.

(٣) جامع المجددين،ص ٢٨،٢٧.

* * *

صفات قرآنيَّة لليهود
عـــبر التـــاريـــخ

بقلم: الأستاذ: صلاح عزام

ولنحاول أن نتعمق في التاريخ لنتعرف على متابعة اليهود للدين الإسلامي حتى نستطيع أن نحكم على هذه الطائفة.. في وضوح .. وعدل.. وعلى الدوام.. ومن خلال حياتهم عبر العصور لا من خلال فترة ما بعد البروتوكلات.. وفقط..

لقد أثبتت الوثائق العلمية أن اليهود ترقبوا الدين الإسلامي.. ومطلع الدعوة المحمدية.. حتى أنهم تركوا الأرض.. واتجهت عناصرهم المفكرة والرئيسية إلى الصحراء القاحلة في المدينة، وبالقرب من مكة.. وزعموا أنهم جاؤوا إلى هذه المنطقة.. تاركين خلفهم الأرض السهلة والبلاد الخصبة.. انتظارًا لنبي سيظهر في هذه الأرض.. فيتبعونه لأن كتبهم تنبئهم بذلك..

قالوا: هذا لقبائل العرب.. فتركوهم وشأنهم إذ إنهم أهل إيمان بالله.. والعرب قوم وثنيون..

ولكن اليهود.. بعد أن استقر بهم الأمر.. بدؤوا يقيمون الحصون.. ويوسعون في رقعة أرضهم.. ويعملون فيما لا يعمله العرب، ويكونون الثروات، ويتدربون على القتال واستعمال الأسلحة من داخلها..

ولما أثار هذا شك العرب.. واستفسروا عنه.. خاصة وأن أحدا لم يحتك بهم، أو يحاول الاعتداء عليهم.. كانوا يجيبون بما لا يضمرون..

أما الحقيقة.. فهي ملاقاة محمد ورسالته.. وحتى يمثلوا مع النبي دورهم مع المسيح.. يقاتلونه.. ويشرعون في قتله أن استطاعوا.. لكيلا ينتشر دينه، وليخلو لهم الجو مع الدين الجديد يصارعونه ويقتلون قادته، ثم يقضون عليه تماما.. لأن الإسلام دين آخر.. يختلف عنهم.. وعن المسيحية وفي انتشاره وتعمقه في النفوس.. قضاء على ما سواه..

هكذا كانوا يفكرون.. ومن أجل هذا كانوا يعملون ويستعدون..

ولم يتبع اليهود النبي.. ولم يؤمنوا بالإسلام.. وإنما كانوا حربا عليه من اللحظة الأولى.. ودهش العرب لهذا الموقف.. حتى ليقول سعيد بن جبير عن ابن عباس: إن يهودا كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ، فلما بعثه الله من العرب كفروا به، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور أخو بني سلمة: يا معشر اليهود، اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد، ونحن أهل شرك، وتخبروننا أنه مبعوث، وتصفونه لنا بصفته. فوقف سلام بن مشكم أحد بني النضير يرد عليه في سفسطة. وانتهى الأمر بهم من غير طائل، حتى ليقول القرآن في ذلك ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

وانتشر الإسلام..

وقويت جماعة المسلمين..

وتحرك اليهود يكشفون عن نياتهم.. ومؤامراتهم.. ويواجهون المسلمين في وضوح وصراحة بالعداء.. ويؤلبون عليهم العرب.. وينضمون إليهم في قتالهم للمسلمين..

وفي القرآن الكريم.. وصف لخطى هذه المؤامرة العريضة ورصد دقيق لنفسياتهم، تنبيها للمسلمين على مر الزمان لهذه الفئة.. وتحذيرا لهم منها.

ومن خلال المرور العاجل لوصف القرآن لهم، تبرز بعض جوانب مؤامرة اليهود ضد المسلمين الأول وقد قضى الله سبحانه وتعالى على هؤلاء اليهود في حروب المسلمين معهم سواء مع بني قينقاع، أو بني النضير، أو بني قريظة، وأخيرا في خيبر.. وانتهت جميعها بنصر الله لدينه، والقضاء على قوة اليهود.. وبتبعيتهم للمسلمين.. وبقيت لليهود صفاتهم كما قلنا تعريفا كاملا وواضحا للمسلمين بصفات خصومهم الألداء وطبائعهم ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ﴾.

ومن هذا المنطلق والوضع.. تجد صفات اليهود التي يحذر القرآن المسلمين منها ويعلمهم اياها.

فمن هذه الصفات الكثيرة التي ذكرها لنا القرآن الكريم:

مغرورون

إنهم مغرورون.. فقد ذهب رسول الله ﷺ مرة إلى حيث يتعبد اليهود ويتدارسون كتابهم، ودعاهم النبي إلى الإسلام فصمتوا، ولم يتحدث واحد منهم، ثم بدد الصمت النعمان بن عمرو، والحارث بن زبير اثنان من أحبار اليهود ليسألا سؤالا غريبا: على أي دين أنت يا محمد؟

فيقول لهم الرسول على ملة إبراهيم ودينه..

فيجيبان: إن إبراهيم كان يهوديا..

فيسألهما النبي عن أي سند لهما فيما يقولان. وعمن تعلماه، وأين وجداه؟ فيجيبان: إنهما يجدانه في كتابهما المقدس، فيرد عليهما رسول الله ﷺ فهلم إلى التوراة فهي بيننا وبينكم.. فرفضا.. لينتهي هذا اللقاء كما بدأ من غير طائل.. ولينزل قول الله تعالى ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۖ وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

و.. سفهاء

ويصفهم القرآن مرة أخرى بأنهم سفهاء، إذ عندما استجاب الله سبحانه وتعالى لدعاء نبيه وتحولت القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام.. صعق اليهود، وسارع وفد من أحبار اليهود إلى لقاء النبي ﷺ ليساوموه على أن يعود إلى القبلة الأولى، وهم يدخلون في الدين الإسلامي.. وظلوا يساومون النبي.. والنبي يقول لهم: إن هذا هو أمر الله.. ولا يملك هو إلا إطاعته.. ولم يقتنعوا ولم ييأسوا، وانصرفوا غاضبين مقهورين، لينزل فيهم قول الله تعالى ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ

جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾.

وأتباع شياطين

وأشمل الأوصاف.. من بين أوصاف عديدة يذكرها القرآن الكريم لليهود.. أنهم أتباع شياطين.. وكان هذا أثر محاورة مع النبي ﷺ يذكرها عبد الله ابن عبد الرحمن عن شهر بن حوشب الأشقري فيقول: إن نفرا من أحبار اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، أخبرنا عن أربع نسألك عنها، فإن فعلت ذلك اتبعناك وصدقناك وآمنا بك. فقال لهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه لئن أنا أخبرتكم بذلك لتصدقني. قالوا: نعم. قال: فاسألوا عما بداكم.

قالوا: فأخبرنا كيف يشبه الولد أمه. وإنما النطفة من الرجل.

قال: فقال لهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنشدكم بالله وبآياته عن بني إسرائيل هل تعلمون أن نطفة الرجل بيضاء غليظة ونطفة المرأة صفراء رقيقة فأيتهما علت صاحبتها كان لها الشبه.

قالوا: اللّٰهم نعم..

قالوا: فاخبرنا كيف نومك؟

فقال: أنشدكم بالله وبآياته عن بني إسرائيل هل تعلمون أن نوم الذي تزعمون أني لست به تنام عينه وقلبه يقظان.

فقالوا: اللّٰهم نعم..

قال: فكذلك تنام عيني وقلبي يقظان.

قالوا: فأخبرنا عما حرم إسرائيل على نفسه..

قال: أنشدكم بالله وبآياته عن بني إسرائيل.. هل تعلمون أنه كان أحب الطعام والشراب إليه ألبان الإبل ولحومها وأنه اشتكى شكوى فعافاه الله منها فحرم على نفسه الطعام والشراب إليه شكرا لله حرم على نفسه لحوم الإبل ولبنها؟ فقالوا: اللّٰهم نعم.

قالوا: فأخبرنا عمن يأتيك بالوحي..

قال: أنشدكم بالله وبآياته عن بني إسرائيل هل تعلمونه جبريل وهو الذي يأتيني.

قالوا: اللّٰهم نعم، ولكنه يا محمد لنا عدو وهو ملك إنما يأتي بالشدة وبسفك الدماء ولولا ذلك لاتبعناك.

فانصرفوا، لينزل الله قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾ إلى قوله تعالى ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾. الآية

و.. أوصاف أخرى..

ومع هذه الأوصاف لتحديد موقف اليهود ضد الإسلام.. والمسلمين.. ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ﴾.

صدق الله العظيم

عوامل التربية في الإسلام

بقلم: الأستاذ/ علي القاضي

التربيـة عمليـة دائمـة في حيـاة الفـرد لتعـديل خبرته، وبها يكون الإنسان قادرًا على النمو المتجدد الذي يجعله يحيا حياة سعيدة ويكون عضوًا إيجابيًّا نافعًا في المجتمع.

وكل مجتمع من المجتمعات الإنسانية يرسم صورة لما يريد أن يحققه في مجتمعه، ويضع الأسس لتربية أبنائه حتى يمكن أن ينشئهم على المنهج الذي يحقق الصورة التي يرسمها.

وللتربية عوامل تؤثر في تربية أبناء المجتمع.

والإسلام دين له مثله، وله أهدافه التي يريد أن يحققها في هذه الحياة، وقد وضع الإسلام الأسس السليمة لتربية أبنائه. وتناولت هذه الأسس جميع نواحي الإنسان الجسمية والنفسية والفكرية.

كما اهتم بعوامل التربية التي تحقق المثل التي تنشدها.

وعوامــل التربيــة في الإســلام هــي: الأسرة والمسجد والمدرسة والمجتمع – وسنتناول بإيجاز الكلام عن كل واحد منها.

الأسرة:

الأسرة هي البيئة الطبيعية لنشوء الأطفال، وقد أثبتت تجارب الجنس البشري أنها أفضل نظام لتربيتهم وتزويدهم بالعوامل النفسية والثقافية اللازمة لنموهم، وتقدمهم، وحمايتهم – فرعاية الطفل والعناية به أول ما يجب على الوالدين، ويحسنان تربيته ويقومان بتعليمه وهما مسؤولان عن ذلك مسؤولية كاملة لا تقتصر على فترة من الفترات، فالطفل قليل التجارب سهل التأثر لقلة خبراته، وسهولة استهوائه، ولذلك يجب أن يحاط بكل عناية حتى لا تتأثر نفسيته بعادات وآراء غير صالحة وغير مناسبة للأغراض التربوية التي يهدف المجتمع إلى تحقيقها. فالوالدان عليهما أن يهتما بصحة الطفل وحمايته من الأمراض وعلاجه منها إذا أصيب بنوع منها، وعليهما أن يهتما بتكوين العادات الصحية وحمايته من الأخطار. وعليهما أن يعنيا بالناحية العقلية لإدراك العلل. كما أن عليهما الاهتمام بالناحية الوجدانية فيهذبا انفعالاته ويكونا العادات الوجدانية الصالحة ويحاولا استئصال العادات الوجدانية السيئة إن وجدت، ويعوداه السيطرة على انفعالاته كالثورة لسبب تافه مما يسبب له المتاعب الدائمة كما يسببها لمن يتعامل معه.

وقد أثبت علماء النفس أن ما يلاقيه الطفل من المعاملات في السنوات الأولى سيستمر صداه في

نفسه طوال حياته. ففي حضن الأسرة يجد الطفل حاجته من الحنان – والعطف والرعاية – والرسول الكريم أوصى بإظهار العطف والحنان للأطفال.

وقد كان يعامل الحسن والحسين رضوان الله عليهما بمنتهى الرفق والحنان، وقد أطال السجود مرة؛ لأن الحسن كان متعلقًا بكتفه فلم يحب أن يفزعه..

وقد أوصى بالمساواة بين الأبناء في العطف والحنان حتى لا تتأثر نفسية الطفل فيتأثر سلوكه... وقد نظر الرسول الكريم إلى رجل له ابنان قبَّل أحدهما وترك الآخر فقال له: فهلا سويت بينهما؟ ودخل عامل على عمر بن الخطاب فوجده يداعب أبناءه ويضاحكهم. فتعجب العامل وعتب عليه فقال له عمر: كيف أنت مع أهلك؟ قال: إذا دخلت سكت الناطق! فقال عمر: «اعتزل عملنا؛ فإنك لا ترفق بأهلك، فكيف ترفق بأمة محمدﷺ؟»

وفي ظلال العطف والحنان تكون الرعاية والتربية، يقول الرسول الكريم: «أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم».

وكما اهتم الإسلام بتربية الطفل، اهتم بتربية الطفلة؛ بل لعل اهتمامه بها أكثر لما لها من أهمية في الأسرة ومن أثر في تربية أبنائها في سنواتهم الأولى فهي ملازمة لهم قائمة على أمورهم معنية بشؤونهم فهم يقتدون بها ويتشربون روحها ويأخذون من عاداتها وأخلاقها. وهذا الحديث الشريف يبين لنا مقدار اهتمامه بها «من كانت له ابنة فأدبها فأحسن تأديبها وغذاها فأحسن غذاها وأسبغ عليها من النعمة التي أسبغ الله عليه كانت له ميمنة وميسرة من النار إلى الجنة» بل أكثر من هذا فالإسلام لم يكتف بالتربية في الصغر؛ بل تعداها إلى ما قبل ذلك. فقد تدخل لمصلحة الطفل قبل أن يولد! فللوراثة تأثيرها العميق. تأثيرها في الصفات الجسمية وفي كثير من الصفات الخلقية فقد يرث الصغير أشياء لا يستطيع التخلص منها. وقد أثبت علم النفس الحديث أن الذكاء والقدرات الخاصة والغرائز كلها تورث. كما أثبت أن المزاج – وهو الذي يتوقف على حالة الجهازين العصبي والغدي – يتأثر بالوراثة.

والإسلام اكتشف هذه الأشياء منذ أربعة عشر قرنًا تقريبًا فأوصى بملاحظتها وألح في الوصية ونبه وشدد في التنبيه على اختيار الأبوين اللذين لهما صفات خاصة تحقق إيجاد الجو الصالح الذي يصلح لتربية الطفل فالرسول الكريم يقول في اختيار الزوجة:

«إياكم وخضراء الدمن». فيسأله سائل: وما خضراء الدمن يا رسول الله؟ فيقول: «المرأة الحسناء في المنبت السيء». فالمرأة إذا لم تنشأ في بيئة طيبة ولم تربّ تربية طيبة لا يمكن أن تخرج أبناءها إلا مثلها ومن هنا كان لابد من التحذير والتحذير الشديد فضلا عن أن ابنها سيرث بعض صفاتها؛ فإن تربيتها له سيكون لها أسوأ الأثر في حياته لما لها من المقدرة

على استهوائه ولما يراه فيها من المثل الأعلى فيقتدي بها، ويبالغ الرسول في التنبيه حين يبين الأثر الذي تنتجه الوراثة فيقول: «تخيروا لنطفكم، فإن العرق دساس» ويبين الرسول الكريم أن «المرأة تنكح لمالها ولجمالها ولحسبها ولدينها». ويقول لمن يريد أن يتزوج: «فاظفر بذات الدين تربت يداك». وفي اختيار الزوج يطلب من أهل الزوجة أن يختاروه على أساس الدين وإلا فإن الفساد ينتشر. يقول الرسول الكريم: «إذا جاءكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير».

المسجد:

يمثل المسجد في الإسلام عاملا هامًّا من عوامل التربية فهو مكان للعبادة وهو مكان للتربية أيضا. وما العبادة إلا جزء من رسالة المسجد. ولذلك فقد كان أول شيء فعله رسول الله عليه السلام بعد أن حط رحاله في المدينة أن سأل عن المربد الذي نزلت فيه ناقته قائلا: لمن المربد؟ فأجابه معاذ بن عفراء: إنه لسهل وسهيل ابني عمرو وهما يتيمان، وسيرضيهما. ورجا النبي أن يتخذه مسجدا، وقبل النبي وأمر أن يبنى في هذا المكان مسجده.

في هذا المسجد وضع النبي الكريم أسس دعوته الإسلامية وكان يبين لأصحابه خطوطها الرئيسية وتفصيلاتها ويفهمها لهم ويربيهم عليها. ففي خطبته الثانية بالمسجد قال:

«اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا. واتقوه حق تقاته، واصدقوا الله ما تقولون، وتحابوا بروح الله بينكم. إن الله يغضب أن ينكث عهده».

فالصلة الروحية بين العبد وربه هي أول شيء يجب على المسلم فالله يعبد وحده بإخلاص ولا يشرك به في عبادته.. وهو الذي يتقى حق تقاته. ويراعى في كل عمل يعمله الإنسان سواء كان خاصا به أم عاما لمجتمعه ووطنه وهذه خير طريقة لتربية الضمير. وكان المربي الأول صلوات الله عليه يلاحظ حال تلاميذه ويخلطهم بنفسه ويتخذ خير الطرق لتربيتهم وتثبيت المعلومات في أذهانهم وطريقته في ذلك هي أحدث طرق التربية إذ كان يطلب من المخطئ إصلاح خطئه بنفسه فإن لم يصل إلى ذلك تركه إلى أن يفقد توازنه ويزداد انتباهه فيكون عنده استعداد عظيم لتلقي الصحيح منه.

صلى رجل بمسجد الرسول صلاة سريعة ثم جاء فسلم على النبي وصحابته وهم جالسون فرد النبي عليه السلام ثم قال له: «ارجع فصل فإنك لم تصل» فعاد وصلى كما صلى من قبل وحين رد عليه مثل رده الأول قال له: والذي بعثك بالحق نبيا ما أحسن غيره، فعلمني فأخذ الرسول الكريم يعلمه كيفية الصلاة الكاملة. فالرسول صلوات الله عليه لم يعلمه في مبدأ الأمر؛ بل طلب منه أن يصلح خطأه بنفسه أولا. وحين لم يفعل ذلك في المرة الأولى تركه حتى فقد توازنه وأصبح عنده الاستعداد الكافي

لتلقي تعليم النبي له في يقظة تامة وانتباه كبير فلا ينسى بعد ذلك أبدا؛ بل ويهتم بأن يعلم غيره ما تعلمه.

ومن أساليب التربية التي اتبعها المسجد أن المسلم إذا دخله ووجد حلقة علم جلس حيث ينتهي به المجلس بلا فرق بين إنسان وإنسان فالجميع في بيت الله سواء.

وكان من أهم الأشياء التي لاحظها الرسول ألا يثقل على أصحابه حتى لا يسأموا فلا يستفيدوا شيئا، من ذلك ما رواه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما كان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتخولنا بالموعظة مخافة السآمة علينا؛ بل كان كثيرا ما يدخل في دروسه عنصر التشويق حين يقص عليهم أخبار الأمم السابقة وما آلوا إليه. وكان النبي يتعهد أصحابه بالرعاية والعناية يخطب فيهم ويدرس لهم ويبين لهم الجديد من التشريع ويوضح لهم ما غمض عليهم يسألهم أحيانا ليختبر ذكاءهم وانتباههم وكان يجيب على أسئلتهم التي يوجهونها إليه. واستطاع المسجد الأول بهذه الطريقة أن يخرج للإسلام علماء في الفقه الإسلامي وفي فهم القرآن الكريم ورجالا في كل ناحية من النواحي، وقد كان لهم أثر بين في نشر الثقافة الإسلامية في أنحاء العالم الإسلامي بعد امتداد رقعته واتساع سلطانه. ولم تقتصر رسالة المسجد على التعليم وحده؛ بل تعدته إلى تقوية الروابط الاجتماعية، وتوثيق الصلات الأخوية، وإشعار أعضاء المجتمع الإسلامي بأنهم إخوة كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا لا فرق بين فرد وآخر. فالمسلمون يصلون خمس صلوات كل يوم في المسجد يقفون متجاورين بدون تفريق في صفوف منتظمة فإذا ما قضيت الصلاة لاحظوا من تخلف منهم فيسألون عنه ويبحثون عن السبب الذي تخلف من أجله.

وروح المسجد روح تكافل واتحاد. ولأهمية المساجد في التربية الإسلامية لم يتهاون النبي في المسجد الذي أنشأه جماعة من المنافقين وكانوا يأوون إليه ليحرفوا كلام الله عن مواضعه ويفرقوا بين المؤمنين ضرارا، وهو الذي سماه القرآن الكريم «مسجد الضرار» فلم يكتف الرسول بعدم تلبيته لدعوتهم فيرفض الصلاة فيه؛ بل أمر بإحراقه بدون هوادة لما له من أثر سيء، فوجوده موضع خطر كبير على أبناء المسلمين.

واستمر المسجد يؤدي دوره التربوي والتعليمي في جميع العصور الإسلامية وحتى عصرنا الحاضر في بعض أقسام الأزهر. واقتصر حين انتشرت المدارس على بعض نواحي التربية.

وهكذا استطاع المسجد أن يقوم بدور كبير في تربية الأمة الإسلامية، وأن يكون ذا أثر قوي لا نزال نحس به ونرجو أن يعود إلى سابق عهده في التأثير والتربية حتى نصل إلى ما وصل إليه أجدادنا من رقي وتفوق.

وحتــى نحــس بالهــدوء الهــدوء النفــسي والاطمئنان القلبي، والسعادة الحقة.

المدرسة:

نــشأت المدرســة في الإســلام نــشوءًا طبيعيًّــا تدريجيًّا فكانت قليلة العدد في بداية الأمر وما زالت تنمو حتى أصبحت في صدر الدولة العباسية كثيرة منتشرة في البلدان الإسلامية انتشارًا كبيرًا. وقد كانت على درجات منها الكتاتيب، ومنها بيت الحكمة الذي أنشئ أيام الرشيد والمدارس النظامية ببغداد ودارالعلم بالقاهرة، والبيئة الاجتماعية في المدرسة أوسع من بيئة المنزل وأكثر تنويعا، وذلك ضروري لتربية الطفل حتى لا ينشأ الطفل مدللا. والمدرسة توجد توازنًا في حياة الطفل من الناحية الفردية والاجتماعية – فالمدرسة حلقة وسط بين البيئة المنزلية والمجتمع الحقيقي – والمدرسة القديمة كان المدرسون الذين يتصدون للتدريس فيها يمتهنون هذه المهنة عن رغبة – والمدرسة الحديثة تعد المدرس إعدادا خاصا لمهنة التربية.

والمدرسة عامل هام من عوامل التربية لأنها بأسلوب التربية الذي تتبعه تؤثر في مفاهيم التلاميذ وفي تكوين معتقداتهم كما تؤثر في سلوكهم.. وعن طريق تقليدهم لأساتذتهم واستهوائهم والإيحاء إليهم يستمر التأثير في ذلك.

وقد أخذت المدرسة بذلك جزءًا كبيرًا من رسالة المسجد في التربية وهي بذلك تعتبر مكملة له بما لها من إمكانيات لا توجد في المسجد وبخاصة في عصور العلم والتكنولوجيا أو هي امتداد للمسجد ولرسالته إذا كانت التربية فيها تسير على أساس العقيدة الإسلامية والتعليم يسير على أساس تحقيق أهداف الإسلام.

المجتمع:

المجتمع عامل هام من عوامل التربية لما له من تنوع وأثر فهو يشمل كل ما في المجتمع من أصدقاء ومن صحافة وإذاعة مسموعة وإذاعة مرئية وخيالة وهيئات دينية واجتماعية وغير ذلك.

والإسلام يعطي صورة لترابط المجتمع وتأثير بعضه في بعض. في الحديث الشريف الذي يقول: «مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين في أسفلها إذا ما استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: إنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا؟ فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا.

ومن هنا فإن الإسلام يضع قاعدة للمجتمع تجعل كل فرد فيه يحس بالإحساس الكامل بالمسؤولية «كلكم راع ومسؤول عن رعيته» ويفرض على كل مسلم أن يغير المنكر الذي يراه في حدود استطاعته «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك

أضعف الإيمان» وهو بهذا يجعل المسلمين كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر وكالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا..

وقد بين الرسول الكريم أثر الجليس الصالح وجليس السوء حتى يكون كل فرد على بينة من أمره فلا يصاحب إلا الصديق الصالح «مثل الجليس الصالح والجليس السوء كصاحب المسك ونافخ الكير – لا يعدمك من صاحب المسك إما أن تشتريه أو تجد منه ريحا طيبا ونافخ الكير يحرق بدنك أو ثوبك أو تجد منه ريحا خبيثة» ويحذر القرآن الكريم من الاطمئنان إلى الظالمين ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾.

ولقد كان الجلوس في الطرقات – وما زال – مصدرًا للمشكلات الكثيرة في المجتمع ومحكًّا لمستوى الأخلاق في الأمة. ولقد نهى الرسول الكريم أصحابه عن الجلوس في الطرقات فلما قالوا له: إن ذلك غير ممكن، طلب منهم أن يؤدوا حق الطريق بحيث لا يترتب على الجلوس في الطريق أي مشكلة اجتماعية؛ بل بحيث تظهر منها فوائد اجتماعية «إياكم والجلوس في الطرقات» قالوا: يا رسول الله: مالنا بدمن الجلوس فيها. إنما هي مجالسنا نتحدث فيها قال: «فإن أبيتم إلا الجلوس فيها فأعطوا الطريق حقه». قالوا: وما حق الطريق؟ قال: «غض البصر وكف الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

والحوادث التي يراها الأطفال في الخيالة وفي الإذاعة المرئية تظل في ذاكرتهم مدة أطول من تلك التي يرونها عن طريق آخر – وأنهم يضعون فيها ثقة أكبر مما يضعون في المعلومات التي يحصلون عليها من طرق أخرى. وأن أكثر الحقائق تذكرا تلك التي تقترن بصفة وجدانية.

ولقد كان للخيالة أثر كبير في رفع نسبة جرائم الأطفال حين اتجهت الأفلام إلى الإكثار من المناظر التي تتحدث عن الجرائم، ومثل ذلك الإذاعة والصحافة فإن لذلك كله أثرا كبيرا في تربية الصغار والكبار أيضًا.

هذه الأشياء التي تحدث آثارها في المجتمع تعتبر عاملا هامًّا من عوامل التربية وعلى المجتمع أن يحيطها بالضمانات التي تكفل التأثير الحسن في نفوس الأطفال والشباب، وتكون عاملا طيبا من عوامل التربية في الإسلام.

خاتمة:

وبعد فهذه هي عوامل التربية في الإسلام وينبغي أن تسير كلها في الطريق الذي رسمه لها الإسلام تحقق مثله وتنشر أفكاره وتطبقها على نفسها وتكون قدوة للناس جميعًا فبذلك يسعد الفرد ويسعد المجتمع الإسلامي ويسير على هذا النهج من يريد أن يسعد من المجتمعات الأخرى.

الزّيّ الإسلامي

بقلم: الدكتور/ أحمد الحجي الكردي

قد يكون هذا الموضوع غريبًا لأول وهلة إذ يقول بعض القارئين: ما علاقة الإسلام بالزي، وهل له فيه حكم؟ أليس الإسلام دين الحرية والانطلاق من القيود؟

لكن الجواب على ذلك واضح، ولا يحتاج إلى غوص وتعمق، فالإسلام حقًّا دين الحرية إلى غايتها ونهايتها، الحرية غير المحدودة إلا بحدودها هي نفسها. فالإسلام كفل الحرية للناس جميعًا لا فرق في ذلك بين رجل وامرأة، ولا بين عربي وغير عربي، أو بين غني وفقير، أو كبير وصغير.. والحرية ملك الجميع بقدر متساوٍ بينهم وهي حق لهم جميعًا، لكن هذه الحريات لا بد وأن يتماس بعضها مع بعض في خطوط تماس تشكل الفاصل بينها المحدد لحدودها، فحرية الإنسان لا بد وأن تنتهي عند نقطة انتهاء حرية غيره في موقع التماس وإلا كان الاعتداء على حرية الآخرين، وهذا ما لايرضى به الإسلام لما فيه من الظلم الذي جاء هو لتغييره ورفعه.

وبذلك تكون الحرية قد حدت نفسها بنفسها حفاظًا على كيانها وجوهرها، دون أن يكون للإسلام في هذا شيء غير بيان هذه الحدود التي تضمن للجميع قدرًا متساويًا من الحرية.

وانطلاقًا من هذا المبدإ الإسلامي العام في تكريم الحرية وصيانتها والحيلولة دون اعتداء بعض الناس على بعض؛ فإن الإسلام يقرر أن للمسلم أن يتخذ الزي الذي يراه ويناسبه دونما قيد أو شرط إلا أن يكون في ذلك اعتداء على حرية الآخرين، فإذا كان في هذا الزي اعتداء على حرية أحد فإنه يعتبر ممنوعًا صونًا لحرية الآخرين التي يحرص الإسلام عليها، ولا غرابة فإن في بعض أنواع الزي ملبسًا كان أو غيره تعديًا على الكثير من حريات الآخرين في أخلاقهم وسلوكهم وتربية أولادهم وغير ذلك.

فلكل امرئ الحق؛ بل هو مسؤول عن حفظ أخلاقه وأخلاق من يعوله ويلي عليه من الجنوح والانحراف؛ بل هو مسؤول عن أخلاق المجتمع الإسلامي كله، وفي بعض أنواع الزي استهتار بهذه الأخلاق، ودعوة إلى ما يجافيها مما يحول بين المسلم

وبين ما يتطلع إليه من مستوى أخلاقي رفيع دعا الإسلام إليه.

وجمعًا بين المبدأين، مبدأ صون الحريات وحمايتها، ومبدأ عدم اعتداء بعضها على بعض فقد أبان الإسلام عن بعض القيود في الملبس التي يعتبر في تجاوزها اعتداء على حريات الآخرين.

وأهم هذه القيود:

١- أن لايكون اللباس كاشفا للعورة أو لجزء منها، وعورة الرجل هي من السرة إلى الركبة، أما عورة المرأة الحرة فهي جميع بدنها إلا الوجه والكفين والقدمين في قول جمهور الفقهاء.

وعلى ذلك فإن أي لباس ينكشف معه فخذ الرجل أو بطنه، أو ينكشف معه شعر المرأة أو ساعدها أو ساقها، أو غير ذلك يعتبر لباسًا ممنوعًا محرمًا لما في ذلك من دعوة ضمنية إلى الرذيلة والتحلل الخلقي الذي لا يستطيع الآخرون معه الحفاظ على أخلاقهم وأخلاق أسرهم وأبناء مجتمعهم، وفي ذلك اعتداء كبير على أسمى ما تكفله الحرية لكل إنسان من المبادئ وهو مبدأ حرية العيش في مستوى أخلاقي رفيع.

ولا يجوز أن يقال بحال: ليغلق الإنسان على نفسه الباب ولا يتعرض للآخرين، ولا يأبه بهم ولن يناله بعد ذلك منهم أي أذى. ذلك أن الحياة العامة ملك مشترك بين الجميع، ولا يستطيع أي إنسان أن يمنع الآخرين من ولوجها، وعلى جميع المسلمين أن يكفوا عن أي عمل يلحق أذى بالآخرين فيها، ماديًّا كان ذلك الأذى أو معنويا. ألا ترون أنه لا يقال لولي من قتلته سيارة في شارع عام «لو كان هذا القتيل في بيته لما قتلته السيارة وبالتالي لا مسؤولية على القاتل» وإذا ما قيل ذلك اعتبر شذوذا مردودًا على صاحبه، لأن الشارع العام ملك لكل الناس، وعلى كل الناس أن يبتعدوا عن إيذاء بعضهم فيه. فكذلك اللباس لا يجوز أن تتعدى فيه الحدود التي يلحق منها ضرر بالآخرين، مثله مثل السيارة تماما لا فارق بينهما إلا من حيث أن شرر السيارة مادي وهذا ضرره معنوي، وهو فارق غير مؤثر هنا.

بل إن النظرة المستهترة يلقي بها الرجل إلى امرأة في الشارع، أو تلقي بها المرأة إلى الرجل فيه تعتبر أمرا ممنوعًا شرعًا بنص كتاب الله تعالى حيث يقول: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ ويقول: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ لما في ذلك من اعتداء على حرية الآخرين في السير في الشارع العام في أمان وسلام بعيدًا عن الفساد ومسبباته.

٢- أن لايكون اللباس شفافًا يشف عن العورة تحته، لأن الشفافية هذه مثل الكشف تماما أن

لم تكـن أشـد منـه إغـراء ودعـوة إلى الفـساد، ولأن الثوب الشفاف لا يعد ساترا، والله سبحانه ورسوله قد أمرنا بالاستتار، فقد روى أبو هريرة عن رسول الله -صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- أنه قال «صنفان من أهل النار لم أرهما، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات. مائلات مميلات، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا» رواه مسلم.

٣- أن لايكـون اللبـاس ضـيقًا يـشكل حجـم العورة تحته، كالسروال الضيق الذي يشكل حجم الفخذ والمعطف الضيق الأكمام الذي يشكل حجم الساعدين بالنسبة للمرأة، وكذلك الثوب الضيق الذي يشكل حجم الصدر والخصر للمرأة.. وغير ذلك. لأن في هذا كله نوع إغراء وإيذاء ونيلا من حرية الآخرين في المحافظة على أخلاقهم وعفافهم، ولأن فيه نوع كشف للعورة بالجملة.

٤- أن لايكـون في اللبـاس نـوع خـيلاء وكـبر وإسراف، لأن النبـي -صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- نهـى عـن ذلـك، والقـرآن الكـريم جـاء بتحريمـه أيـضًا، فقـال تعالى: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا﴾، وقال جل شأنه: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ﴾. وقال -ﷺ- «من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة» رواه البخاري. ولم لا فإن في التكبر اعتداء على مبدإ المساواة التي قررها الله تعالى ترسيخًا لمبدإ الحرية، ثم إن الإسراف داء إذا انتشر وباؤه بين أفراد الأمة ألحق بها الخراب والدمار وهو ما لا يرضى به الإسلام.

٥- أن لايكـون اللبـاس زيًّـا خاصًّـا لغـير المسلمين، فإذا كان كذلك كان في ارتدائه تشبه بهم قد يجر إلى تقمص شخصيتهم والتخلي عن الشخصية الإسلامية بكل مقوماتها شيئا فشيئا، وفي هذا من الخطر على الأمة ما فيه، وهل كان أول ضعفنا إلا التخلي عن تقاليدنا واستيراد تقاليد غريبة عنا في الملبس والمسكن.. (من تشبه بقوم فهو منهم).

وهذه أمم الأرض كلها تحافظ على تاريخها وتقاليدها بما في ذلك أرقى الأمم، ونظرة عجلى إلى هذه الأمم من أقاصي الصين إلى أواخر أوروبا كافية لوضع النقاط على الحروف في ذلك، فما بال بعضنا يستسيغ التخلي عن هذه التقاليد غير آبه بما يترتب على ذلك من أفدح الأضرار.

ولكن ليتنبه هنا إلى أن ذلك لا يعني بحال أن نصم آذاننا عن كل جديد، فإن الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها؛ بل يعني أن نفتح آذاننا وعيوننا وكل حواسنا جيدا عندما نقع على أي جديد فنقيسه

بعقولنا ونزنه بمبادئ إسلامنا، ثم بعد ذلك لنقرر أخذه أو تركه، فإذا أخذناه فلنحاول أن نصبغه بصبغتنا الخاصة قطعًا لمعنى التبعية فيه، فقد ثبت عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنه أمر أصحابه الأبرار مرة بصوم يوم عاشوراء، فقالوا له: يا رسول الله هذا يوافق صوم اليهود – لأنهم يعلمون أنه لا يحب الأخذ عن أحد من غير المسلمين – فأجابهم بقوله: نحن أحق بموسى منهم، نغيره فإن جاء العام القابل نصوم معه يومًا قبله أو يومًا بعده. (أو كما قال)، وقد ثبت عنه -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنه قال لأصحابه مرة أيضا: «إن اليهود والنصارى لا يصبغون – أي شيب شعرهم – فخالفوهم» متفق عليه. والرسول – عليه الصلاة والسلام – هو قائدنا ومعلمنا وهو الأسوة الحسنة فينا.

٦- أن لايكون في لباس الرجل ما يشبه لباس المرأة، ولا في لباس المرأة ما يشبه لباس الرجل وذلك لنهي النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عن ذلك، فقد روي عن ابن عباس أنه قال: لعن رسول الله المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال. رواه البخاري، وقد روى أبو هريرة أيضا: لعن رسول الله -ﷺ- الرجل يلبس لبسة المرأة، والمرأة تلبس لبسة الرجل. رواه أبوداود بإسناد صحيح. ذلك أن الله تعالى خلق الناس من ذكر وأنثى وأودع في كل منهما من الصفات ما يجعله أهلا لتحمل مسؤولياته الخاصة به في هذه الحياة، وفي ارتداء أي منهما لباس الآخر تغيير لنفسه ومشاعره مما يعوقه عن القيام بالأعباء الحياتية التي خلقه الله تعالى لها. فيكون بذلك مفوتًا على الأمة فردًا نافعًا طالما عملت على إعداده والعناية به، ذلك أن لطريقة الإنسان في ملبسه ومأكله ومسكنه وحديثه.. أثرًا في نفسه وسلوكه، هذا ما يراه ويشهد به العلماء المتخصصون في الدراسات النفسية والاجتماعية بصرف النظر عن عظم أو صغر ذلك الأثر.

هذه هي أهم صفات وملامح الزي الإسلامي ما يتعلق منها بالملبس للرجل والمرأة، رأينا كيف سلك الإسلام بها مسلك الأخذ بالحرية المقيدة بما يحفظ حرية الآخرين في أمورهم المادية والمعنوية وكلى رجاء أن يتفهمها شبابنا وشاباتنا، ويدركوا مغزاها العميق، ويلتزموا بها محافظة منهم على استقلاليتهم وبعدًا بهم عن التسكع على موائد أزياء الأجانب التي تأتينا كل يوم بجديد ظاهره الرحمة وباطنه العذاب، يحمل في طياته كل ما يكفي للقضاء على أخلاقنا وصمودنا ومثلنا، وهو ما لم تستطع فعله سيوف الصليبيين وحروبهم التي امتدت قرونًا.. ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾.

فِتيَةٌ آمنــوا بربهم

بقلم: الأستاذ/ محمد المجذوب(*)

روى الإمامان أحمد ومسلم وغيرهما من أئمة الحديث عن قتادة قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال». وعن أبي سعيد الخدري وصححه الحاكم قال: قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه: «من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين الجمعتين». وهناك أحاديث عدة في الموضوع، وإن لم تبلغ درجة الصحيح، فهي مع ما صح من الأخبار تشد النظر بقوة إلى أهمية هذه السورة، وبالتالي تدفع المفكر إلى التأمل طويلا في طواياها، ليستطيع الجواب على هذه الأسئلة: لماذا خصت سورة الكهف بهذا الفضل؟.. لماذا كان لها هذا الأثر في عصمة المؤمن من أكبر الفتن؟.. ما السر في صيانتها للمؤمن من ظلمة الزيغ ما بين الجمعتين.. لماذا؟.. ولماذا؟..

بهذه الحوافز وجدتني مدفوعًا إلى تلاوة السورة بروح جديدة، وعلى صورة أكثر دقة مما ألفت، كالذي يقع على مخطط يحدد مكانًا لكنز عظيم، فيمضي مع إشارته حتى يصل إلى طلبته!.. وها آنذا أعرض لأذن السامع، وعين القارئ بعض ما وفقني الله إليه من هذا الخير، الذي أرجو أن يساعدهما على أن يستكشفاه بنفسيهما، ليقرءا ما يقرآن وهما على نور من ذلك النور، الذي وصفه منزله الحكيم بقوله الكريم: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ..﴾.

وطبيعي أن أقتصر من السورة على الجانب القصصي، انسجاما مع موضوع الأحاديث، ففيه ما يكفي لإثارة شهوة المعرفة في نفس القارئ والسامع فلا يكتفيان مختارين بما اكتفت به مضطرا؛ بل يكون ذلك حافزا لهما على تتبع الجوانب الأخرى حتى يظفرا بالحظ الوفير من ذلك الكنز الإلهي الكبير.

لقد ساق الله تبارك وتعالى في سورة الكهف عددًا من الأمثال والقصص متفاوتة الحجم، ولكل منها مغزاه المثير، وإيحاؤه البعيد..

فهناك قصة أصحاب الكهف التي بها سميت السورة، ثم قصة صاحب الجنتين، ثم قصة موسى

(*) المدرس في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

والخـضر، وأخـيرًا قـصة ذي القـرنين.. ونبـدأ الآن بأولى هذه الأربع، فهي تبدأ من الآية الثامنة وتستمر حتى السادسة والعشرين وهي أحد الأجوبة الثلاثة على الأسئلة التي جاء بها كفار قريش عن أحبار اليهود، ليمتحنوا بها – في زعمهم – صدق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

وخلاصة القصة أن فتيانا من المؤمنين قد هداهم الله إلى الحق، فخرجوا على شرك قومهم، ثم هربوا بدينهم من الفتنة فلجؤوا إلى غار في أحد الجبال، وهناك ألقى الله عليهم وعلى كلبهم معهم النوم لمدة ثلاث مئة وتسع سنوات قمرية. ولما شاء سبحانه وتعالى أن يظهر أمرهم ردهم إلى اليقظة، فجعلوا يتساءلون بينهم عن الزمن الذي استغرقه نومهم، فلم يزيدوا في تقديره عن يوم أو بعض يوم.. ثم أرسلوا أحدهم إلى المدينة ليأتيهم بطعام يسدون به جوعهم، وأوصوه بالتخفي والتلطف حذرا من أن يطلع قومهم المشركون على أمرهم فيوقعوا بهم، أو يكرهوهم على العودة إلى ملتهم التي أنقذهم الله من ظلماتها.. ولكن سرعان ما تنبه الناس إلى أمرهم، وبذلك تتم العبرة التي شاءها الله من هذه الأعجوبة، وهي توكيد وعد الله بإمكان البعث بعد الموت، ليستعد عباده لأداء الحساب على ما كسبت أيديهم، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.. ثم تنتهي القصة بموت الفتية وإقامة مسجد على قبورهم..

ولكي نلم بموحيات القصة يحسن بنا أن نرجع إلى بعض التفاصيل التي أوردها ثقات المفسرين، فقد أجمع العديد من مفسري السلف والخلف على أن هؤلاء الفتية كانوا من علية القوم جاهًا ونفوذًا، وقد امتازوا كما يفهم من سياق القصة بشيء غير قليل من النباهة والثقافة، والتطلع إلى الحق، مما أفضى بهم إلى التحرر من ضلالات الشرك، الذي وجدوا عليه قومهم.. وهكذا جمعيتهم وحدة الاتجاه فاتخذوا لأنفسهم مكانا يعبدون الله فيه سرًّا، ولكن أمرهم لم يلبث أن انكشف، ووصل إلى الملك الغاشم فاستقدمهم واستجوبهم، وحاول جاهدًا ثنيهم عن طريقتهم المثلى، ولما يئس من استجابتهم خلع عنهم حلاهم وجردهم من مراتبهم، ثم أعطاهم مهلة يراجعون خلالها عقولهم، فإما أن يثوبوا إلى دينه، أو يستقبلوا الموت جزاء على تمردهم!.. وفي هذه الأثناء وجدوا فرصة للفرار من الفتنة، فلجؤوا إلى ذلك الكهف الذي شهد بقية أحداثهم!..

وسنتمتع أثناء تلاوة القصة الإلهية بصورة تتجاوز حدود الروعة في عرض رعاية الله للفتية، وموضعهم من الكهف، وحالة كلبهم ومكانه، وترتيب انسياب الأشعة إلى مهجعهم.

لقد شاءت حكمة الله أن يكون باب الكهف من نحو الشمال، ليتاح للشمس أن تمدهم من ضوئها وحرارتها بالقدر الضروري، للحفاظ على

عمليـة الحيـاة في أجـسامهم، وذلـك قبيـل الـزوال وبعده، ولـو انحرف الباب إلى أي اتجاه آخر لاختلّ التوازن، ولاستحال بالتالي استمرار الحياة: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾.

وأحكم وضع أجفانهم على نحو يساعد على مـرور الهـواء عـلى الأحـداق، فـلا تتعـرض للـبلى.. ﴿وَتَحْـسَبُهُمْ أَيْقَاظًـا وَهُـمْ رُقُـودٌ..﴾ وحماهم من التآكل بتقليبهم ذات اليمين وذات الشمال.. فمنع بـذلك الأرض مـن إتـلاف أجسامهم.. وقـد أفـرغ عليهم في هذا الوضع ستارًا من المهابة يحول بينهم وبين اقتحام الناس لمضجعهم، فلا يدنو أحد منه إلا ولّى فرارًا وملئ رعبًا!. ولعل في وضع كلبهم، وهو باسط ذراعيه في مدخل الكهف ما ضاعف هذه المهابـة قـوةً وإيحـاءً.. وإلى جانـب هـذه الـصورة التجسيمية صور آخرى نفسية تبرز الأغوار البعيدة من صدور هؤلاء الفتية، فترى تصميمهم الصارم على التشبث بالحق، وتحمل كل تبعة في سبيله ﴿..رَبُّنَا رَبُّ ٱلـسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـن نَّـدْعُوَاْ مِـن دُونِـهِۦٓ إِلَٰهًـا..﴾ ونسمع تحديهم لضلالات الخصوم: ﴿..هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَـذُواْ مِـن دُونِـهِۦٓ ءَالِهَـةً لَّـوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّـنِ ٱفْـتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا..﴾!! ونلمس إيثارهم ظلمة الكهف مع نور الحق على متاع الدنيا ورفاهيتها مع حلكة الباطل، .. ولكنه إيثار مشحون بالثقة في رعاية الله ونصرته. ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُـوهُمْ وَمَـا يَعْبُـدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُـم مِّـن رَّحْمَتِـهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾.

وتـشدنا العبر مـن هنـا وهنـاك فـإذا نحـن أمـام طائفة من التوجيهات الربانية لا غناء للقلب المتفتح للحـق عـن أي منهـا.. فهنـاك التـذكير بـأن الحيـاة في حقيقتهـا البعيـدة ليـست سـوى مرحلـة ابـتلاء، فـلا ينبغي لزينتها الزائلة أن تصرف العقلاء عن التفكير والتدبير لمـا وراءها من حياة هي دار القرار: ﴿إِنَّـا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْـسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾.

ثـم هنـاك العـبرة التـي تـربط القلـب بحقيقـة البعـث، وهـي القـضية التـي عجـزت عـن تخيلهـا العقـول، ويتوقـف عـلى الإيـمان بهـا سـلوك الإنـسان بأجمعـه في هـذه الـدنيا، ونـوع مـصيره فـيما بعـدها.. تتجلى للقارئ في القصة كيانا ماثلا يجمع بين الروح والجسد، وفي صورة من الحياة لا تستعصي على قدرة الله عـز وجـل.. وبـذلك يجـد القـارئ المتـدبر نفسه مـدفوعًا بكـل مـا وسـعه مـن جهـد إلى تـدارك أمـره، بالعمل الذي من شأنه أن يساعد على تحسين مصيره الآخر.. وبالإضافة إلى هذا كله نتعلم من توجيهات القصة كيف نقتصد في قوانا الفكرية، فلا نبددها في ظنـون لا طائـل مـن ورائهـا كـما يفعـل أولئـك الـذين يتجـادلون في عـدد أهـل الكهـف، وفي أسـمائهم، وفي اسم كلبهم!. وما إلى ذلك مما لا يعلمه إلا الله، ولا

حصيلة له سوى إضاعة الوقت والانشغال بالجدل الفارغ عن عبرة الحديث وموحياته.. ﴿قُــل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾.

وللتعبير القرآني المعجز في هذه القصة نماذج فائقة التأثير، نتعلم منها كثيرًا من الأسرار التي أودعها الله الكلمة القرآنية، فنتدرب خلال ذلك على سننه في استعمال اللفظ كرمز تصويري لإبراز المعاني البعيدة..

أنعم[1] النظر في قوله تعالى: ﴿فَــضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا﴾ ثم اسأل قلبك وعقلك: لماذا استعمل الضرب هنا مكان الإنامة!.. إنه يريد إخبارنا بأنه حكم في فتيان الكهف سلطان النوم، فقطعهم به عما حولهم من الأحياء والأشياء.. ولكنه بدلا من الأداء المباشر عمد إلى الكناية، فأرانا سدا مبنيا من السنين.. قد شيد حول آذانهم فحال بينهم وبين ما وراءه!.. ثم زاد على ذلك تحديد السنين، فهي ذات عدد معين، قدره بحكمته ثلاث مئة سنة بالحساب الشمسي، وتزيد تسعًا بالحساب الهلالي..

ثم أصغ إلى قوله الآخر: ﴿وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ﴾ فهل سألت نفسك قبل اليوم: كيف حدث هذا الربط؟ ولماذا نفي الفعل بلن بدل لا!. وما الصلة بين الربط ولن هذه..؟

ولكي تدنو من مدلول التعبير الإلهي هنا تصور وعاء تربط فوهته، فتحفظ ما فيه من النقص، وتصون مضمونه من الاختلاط بأي شيء من خارجه.. هكذا حفظ الله للفتية إيمانهم الخالص، فصانه من الضعف، وأبعد عنه الشوائب التي من شأنها أن تشوه جمال التوحيد!.. ومن هنا كان النفي بلن كحكم قاطع بتأبيد هذه العزيمة، عزيمة التحرر من كل آثار الشرك.. وهي دلالة لا تقوم بأي حرف من أحرف النفي الأخرى.. ولزيادة الإيضاح تصور أنك دعيت لمواجهة أحد الناس فقلت: (لا أذهب) فهل يعني ذلك أكثر من أنك ترفض الذهاب حال الكلام؟.. أما حين تقول: (لن أذهب) فإنك تؤكد تصميمك على الرفض البات أبدًا..

والآن اقرأ معي هذا التعبير القرآني العجيب: ﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا﴾. فهنا إطار واحد ضم عددًا من الصور في تقسيم لا إحكام كإحكامه، صورة رجال يجمعون هيئة اليقظة وحقيقة النوم، ثم صورة تقليبهم من شمال إلى يمين، ثم من يمين إلى شمال، ثم صورة كلب مفترش مدخل الغار، كأنه يراقب حركة

[1] أنعم النظر في الأمر: حقق النظر فيه وبالغ، وأنعم فيه: بالغ وجود، وأمعن في الأمر: بالغ وأبعد في الاستقصاء، فيكون أنعم في الأمر كأمعن فيه، أما إذا عديت أنعم إلى النظر مباشرة ففيه امتياز لا يتوفر في الآخرين.

الخارج، فهو يتأهب للقيام بمهمته الدفاعية عند الحاجة!

وأخيرًا نظرة شاملة إلى الإطار وقد تحدد في ذهنك مضمونه بجميع تفاصيله.. فماذا ترى؟.. وماذا تحس؟.. المهابة التي تملؤك بالرعب وليس بعد الرعب إلا الفرار!.

وهناك طائفة من اللمحات ذات الأغوار البعيدة، لا ينبغي أن يفوتنا ملاحظة بعضها عن كثب.

لقد شاء الله جل شأنه أن يرد الفتية إلى اليقظة فأول ما خطر في بالهم أن يعرفوا حدود الزمن الذي قضوه في تلك الغفوة، وهكذا انطلق أحدهم يسأل: كم لبثتم؟.

إنه يسأل نفسه ويسأل رفاقه عن المدة المقضية.. فيأتيه الجواب من الجميع ولعله هو أحدهم: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾.

لقد اختلط في أذهانهم حساب الزمن، فهم لا يستطيعون له تحديدا؛ ولكنهم على أي حال لا يتصورونه فوق اليوم!..

وهذا يذكرنا بقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾.. وقوله الآخر: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ..﴾.

والجامع بين هذه الأجوبة كلها هو الشعور بقصر الحياة، وضيق المساحة بين مبادئها ونهاياتها.. وهو شعور طبيعي يتأتى من الانفصام بين الإدراك ومجرى الحداث، فإذا عاد النائم أو الميت إلى الوعي اقترنت في ذهنه لحظتا اليقظة فوق فجوة الزمن، فخيل إليه أن الوقت المنقضي بين اللحظتين دون حقيقته بكثير!.. وهو تصور لا يقتصر على ما بين اليقظتين فحسب؛ بل ينسحب أيضًا على تقويم زمن الحياة الأولى كله.. ذلك لأننا في العادة نتلقى أحداث حياتنا شيئا بعد شيء، فنزنها بحركة الأحداث، وبذلك نستشعر طولها وثقلها، ولكننا عندما نعيد النظر في حصيلتها جميعا يتضاءل ذلك الامتداد، ويصبح في إدراكنا شيئًا صغيرًا.. تماما كما يحدث للناظر إلى عداد الماء أو الكهرباء وهو يتحرك تحت جريان التيار، فيحس بطأه، وامتداد زمنه، ولكن هذا البطء وذلك الامتداد سرعان ما يزولان عندما ينتهي المؤشر إلى غايته، إذ نرى حصيلة الحركة مجموعة كلها تحت أعيننا!.. ذلك هو التعليل النفسي لتفاوت الشعور بقيمة الزمن.. ولكن ثمة نتيجة روحية عليها يتوقف مفهوم التعبير القرآني في هذا المضمار، فإذا كان زمن الحياة وما يعقبها مما يسبق يوم البعث، لا يتجاوز في إدراكنا مقدار الساعة، التي يراد بها الجزء الصغير من الزمن دون تحديد بعدد الدقائق، إذن فمن الإسراف؛ بل من الجنون أن نضيعها في الغفلة والمعصية والبعد عن سبيل الله!..

ومن خلال هذا التصور نطل على مضمون التعقيب الذي يرسله أولئك الفتية أثر تساؤلهم عن

مدة اللبث، إذ ﴿قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ﴾ فكأنهم لاحظوا بعض التغييرات التي طرأت على ما حولهم، فداخلتهم الحيرة من واقعهم، واستيقنوا العجز عن تحديد الزمن المسؤول عنه، فانصرفوا عن محاولة التحديد إلى التسليم، ففوضوا العلم بهذا المجهول إلى الله.. وانتقلوا فجأة إلى تدبير أمر الطعام الذي يعوزهم، والطريقة التي يجب أن يسلكها طالبه للحفاظ على سلامتهم.. بل سلامة دينهم. فإن مجرد العلم بأمرهم يعرضهم للموت رجمًا، أو للعودة إلى ما سبق عهد الهدى من ظلمات الكفر.. وإنها لعودة لا فلاح معها أبدًا..

وقبل الخاتمة نقرأ هذا الإرشاد الرباني يؤدب به الله نبيه صلوات الله عليه: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ..﴾.

فقد حدث أن رسول الله عندما سمع أسئلة الكفار التي حملوها من يهود المدينة، قال: «أخبركم غدا عما سألتم عنه..» ولم يستثن!.. وكانت هذه عجلة منه، إذ كان عليه أن يذكر أن الأمر لله، وليس لأحد أن يحدد عليه موعدا.. ولما أبطأ الوحي بالجواب، وأرجف الكفار ما أرجفوا ضاق صدر الرسول واشتد حزنه ثم جاءه جبريل عليه السلام بالفرج المنشود وفيه معاتبة الله إياه، والتوجيه الذي يصونه من مثل تلك العجلة في المستقبل.. فعليه أن يربط كل أمر بمشيئة الله، التي لا يمكن لشيء أن يتجاوزها أبدًا.. وأن يعالج النسيان بذكر الله الذي بيده وحده أمر الهداية!.

وفي النهاية ما أراني بحاجة لأن أذكر المؤمن بروعة ذلك النظم العجيب، الذي سلسلت فيه المعاني في تساوق فائق، فكانت كالحركة والحرارة والطاقة، تنطلق من المادة الواحدة، فما تدري أيها صاحب الأثر الأول!.

إن هناك الترتيب الذي يسميه البديعيون تقسيمًا، والتضاد الذي يدعونه طباقًا، والتآلف المعنوي الذي يطلقون عليه مراعاة النظير. ثم الجرس الذي يتلاحق في توقيع لا يستطيع القارئ تشويشه، فيساعد على تثبيت الصورة العامة للمضمون في أعماق القلب، وأغوار الذهن، تثبيتًا يخطفه من واقعه الشخصي إلى واقع الفتيان النائمين في جوف الكهف!.

ولا عجب في هذا وذاك.. إنه القرآن.. وإنها قصصه التي لا نجد لها وصفا أوفى بها من قول منزلها: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٣﴾.

وليغفر الله لأبي العلاء الذي هزه من كتاب الله هذا الذي يهزنا، فجعل يمرغ وجهه في التراب وهو يقول في غمرة الدموع وغصة الخشوع:

(سبحان من هذا كلامه.. سبحان من هذا كلامه).

* * *

* *

يومُ الحج الأكبر

بقلم: الأستاذ/ عزت محمد إبراهيم

- كان فتح مكة فيصلا بين عهدين، وكانت حجة الـوداع تربيـة وتعلـيمًا وإرشـادًا للمـسلمين في مناسكهم.
- في خطبـة الـوداع آيـات مـن هـدى النبـوة، هـي نـبراس لنـا نأخـذ منهـا تعـاليم ديننـا بعـد القـرآن الكريم.
- لا حاجـة لمـن يعلـم خائنـة الأعـين ومـا تخفـي الـصدور بتزلـف أو قربى جل شأنه وعـلا على ذلك علوا كبيرًا.
- أعطـى رسـول الله القـدوة مـن نفسه، فـأعطى بـذلك المثـل الأعـلى، وكـان القـدوة الحسنة لمـن أتى من الخلفاء الراشدين من بعده.

كـان العـرب قبـل الإسـلام قـد أحـالوا ديـن إبـراهيم الخليـل إلى ضروب وألـوان مـن الوثنيـة والـشرك والتزلـف إلى الله، فهـم يقيمـون في جـوف الكعبـة الأوثـان والأصـنام يـصنعونها بأيـديهم، ثـم يؤمنـون بعـد ذلـك بقـدرتها عـلى النفـع والـضرر، ويتوسـلون إليهـا ويتقربـون منهـا ويطوفـون بهـا في تضرع وخفية، وإذا حجوا إلى البيت قدموا الذبائح، وقربوا القرابين لأصنامهم تلك التي لا رجاء فيها، ولا فائدة ترتجى من ورائها.

وجاء الإسلام، فطهر بيت الله الحرام من هذا الرجس، وجعل من الحج إليه معنى ساميًا تتحقق فيه أخوة بارة، ومساواة ظاهرة، لا يختلف غني أو فقير في مظهر أو ملبس. والجميع فيه سواسية في لباس واحد، واتجاه واحد إلى الله عز وجل، يلبون نداءه، ويسرعون إلى رحاب بيته في أمن وسكينة.

وكـان فـتح مكـة فيـصلا بـين عهـدين، فطهـر البيت للطائفين والعاكفين والركع السجود، وكانت حجـة الـوداع تربيـة وتعليمًا وارشـادًا للمـسلمين في مناسـكهم: كيـف يؤدونهـا، وفي حجهـم: كيـف يقومون به، على أكمل وجه، وخير أداء، ملقين وراء ظهـورهم عهـد الجاهليـة الأولى بـما كـان فيـه مـن شر ونكر، وخبث وفساد.

وكان فتح مكة في شهر رمضان المبارك من سنة ثـمان للهجـرة، فـدخل النبـي عليـه الـسلام بيـت الله الحرام، وطاف حوله وهو على راحلته، وكان منه يوم الفتح ما هو خليق به من شرف النبوة، وكريم الشمائل فقد قيل: إن سعد بن عبادة كان يهتف يومذاك قائلا: «اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة».

وبلـغ الرسـول عليـه الـسلام قـول ابـن عبـادة، فنحـاه عـن رايـة المـسلمين، ووكـل بهـا عـلي بـن أبي طالب يحملها ويدخل بها مكة.

وقـد حـسب المـشركون أن يكـون لرسـول الله

فيهم يوم انتقام ينادي فيه: الدم الدم، ويأخذ الثأر بالثأر، فما كان ما وقع في حسبانهم، وإنما كان ما ينتظر من عفو عند المقدرة، وسماحة عند الاقتدار، فينادي عليه السلام معشر قريش يسألهم عما يرونه فاعلا بهم فيقولون: أخ كريم وابن أخ كريم، فيقول: اذهبوا فأنتم الطلقاء.

ويتناول النبي مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة، ويدخلها فيجد فيها حمامة من عيدان فيكسرها، ويقف على بابها يخطب في الناس فيفتتح خطبته بعبارة التوحيد الذي جاء به الإسلام، فمحا الشرك محوًا، وقضى على آثاره القضاء المبرم.

«لا إله إلا الله، لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده».

وها هم أقيال قريش وأشرافها، وذوو الحسب والنسب فيها، يسمعون إليه صلوات الله عليه وسلامه. فلا يسمعون تفاخرًا بنسبهم ولا إعلاء من شأنهم، ولكنهم يسمعون قوله يصك أسماعهم: «إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعاظمها بالآباء الناس من آدم، وآدم من تراب».

ويتلو عليهم قول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾.

وطهر عليه السلام البيت من الرجس، فكسر أصنام المشركين وحطم أزلامهم، ومحا صورًا يراد بها الشرك بالله أو التزلف إليه، ولا حاجة لمن يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، بتزلف أو قربى، جل شأنه وعلا عن ذلك علوا كبيرًا، وها هي ذي أصنامهم التي كانوا يدخرونها ليوم كريهة وسداد ثغر، والتي كانوا يرجون منها الثواب ويخشون العقاب ها هي ذي تتهاوى أمام أعينهم، فلو كانت تنفع أو تضر، لنفعت نفسها ودفعت الضر عن ذاتها.

ولعل ذلك هو المعنى الذي قصد إليه تميم بن أسد الخزاعي في قوله:

وفي الأصنام معتبر وعلم
لمن يرجو الثواب أو العقابا

أما وقد طهر البيت من الرجس، وخلت جنباته من مظاهر الشرك بالله فقد آن للمسلمين أن يؤدوا فريضة الحج خالصة لوجه الله لا تشوبها شائبة من تقرب أو تزلف.

وقد أمَّر رسول الله صاحبه في الغار أبا بكر الصديق على الحج، بعد أن فرضه الله على عباده لمن استطاع إليه سبيلا، وكان بين المسلمين والمشركين عهد ألا يصد عن البيت أحد جاءه، ونزلت براءة، يبرأ الله فيها من عهد المشركين، وقد كشف لرسوله دخيلة نفوسهم، وبواطن سريرتهم، وما تنطوي عليه من حقد دفين للمسلمين، وتربص بهم.

وقد حمل البراءة إلى أبي بكر الصديق، علي بن أبي طالب، فلحق به في بعض الطريق، ليتلو عليه قول الله عز وجل.

﴿بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١ فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢ وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ

فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

ولم يحج بعد ذلك العام مشرك، ولم يطف بالبيت عريان.

وكانت حجة الوداع في السنة العاشرة من الهجرة، وقد عزم الرسول على أن يحج بالناس، وسمع أناس من حول المدينة بعزمه عليه السلام، فهرعوا إليه، واجتمع إليه خلق لا يحصون يصفهم ابن قيم الجوزية بأنهم كانوا بين يدي الرسول من خلفه وعن يمينه وعن شماله مد البصر.

وقد خرج الرسول من المدينة ظهرا لست بقين من ذي القعدة، مُيمِّمًا شطر بيت الله الحرام، وعرف الناس في حجته تلك مناسك الحج، يأخذونها عنه، ويفعلون كما يفعل، وفيها كانت خطبة الوداع، فكأنما قد أحس عليه السلام بدنو الأجل، واقتراب المنية، فكان في أول خطبته للناس قوله:

«لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدًا».

وفي الخطبة آيات من هدى نبوته، هي نبراس لنا نأخذ منها تعاليم ديننا بعد القرآن الكريم، فهي سنة رسول الله تفضّل ما أجمل في كتاب الله، وتشرح ما استغلق على الناس فهمه وقد حرم الله الربا وأربى الصدقات وجاء في محكم تنزيله قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾.

وجاء في الخطبة وضع كل دم في الجاهلية، ووضع كل ربا فلا يبقى غير رؤوس أموال الناس.

وتكون الحكمة البعيدة، والبصر النافذ – نفحة من نفحات نبوة مشرقة – أن يبدأ الرسول بذوي قرباه، قبل أن يبدأ بغيرهم من الناس، وكان لعمه العباس بن عبد المطلب أموال عليها ربا فهو أول ما يضع الرسول من الربا، وكان لبني عبد المطلب دم وذحول عند هذيل في الجاهلية، فهو أول دم يبدأ به رسول الله من دماء الجاهلية، فلا يكون للناس عليه حجة، ولا يكون لهم مندوحة عن الامتثال لأوامره وأوامر الله.

«قضى الله أنه لا ربا، وأن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله، وأن كل دم كان في الجاهلية موضوع، وأن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وكان مسترضعا في بني ليث فقتلته هذيل، فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية».

هم عشيرته الأقربون، ينذرهم في مجال

الـدعوة، والأمـر الـذي يـصدع بـه، وهـم عـشيرته الأقربون، يبدأ بهم في مجال القدوة والامتثال، ويتخذ منهم المثل والشاهد إذا هم أحد أن يلتمس شفاعة في حد من حدود الله: «والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها».

ويتعدى الأمر عشيرته الأقربين وآل بيته الأدنين إليه هو صلوات الله وسلامه عليه، فيعطي القدوة من نفسه، ويكون المثل الأعلى في ذلك، والقدوة الحسنة لخلفائه الراشدين من بعده، فيأتي عمر بن الخطاب رجل يستعديه من أمير ضربه، ويهم ابن الخطاب بالقود منه، ولا يبالي ما يكون من عمرو بن العاص الذي لا يريد أن يعمل لأمير المؤمنين وهذا شأنه يقيد من أمرائه لعامة الناس ويكون رد عمر بن الخطاب نسجا على منوال رسول الله، وصاحب الأسوة الحسنة له، ولخيار المسلمين: «لا أبالي إلا أقيد منه، وقد رأيت رسول الله يعطي القود من نفسه».

ويمضي الرسول في خطبة الوداع فيعرض للنسيء ويعده زيادة في الكفر، ويبين الشهور ما يحل فيها قتال وما يحرم، ويبين للناس حقوقهم على نسائهم، وحقوق نسائهم عليهم:

«إن لكم على نسائكم حقًّا، ولهن عليكم حقًّا، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع، وتضربوهن ضربًا غير مبرح فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيرًا فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئًا، وإنكم إنما أخذ تموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمات الله، فاعقلوا أيها الناس قولي، فإني قد بلغت، وتركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا، أمرا بينا: كتاب الله وسنة نبيه.

أيها الناس، اسمعوا قولي واعقلوه، تَعلَّمُن أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم».

تلك أمانة الله قد بلغها رسول الله لعباده، وأشهده عليهم.

وتكر أعوام إثر أعوام، والناس يؤدون فريضة الحج من استطاع منهم السبيل إليه، فإذا جمعتهم مناسكها عرفوا حكمة الشارع فيها، واستبانت لهم من جوانبها عبرة تلو أخرى، وذكروا رسول الله، واستعادوا ما قاله في خطبة الوداع منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان، فإذا العبرة قائمة، والدرس ظاهر بين يتجدد أوانه ولا يبلى منه جديد.

وهم يأتون من المشارق والمغارب، ويقطعون الفيافي والقفار، ويمخرون عباب بحار وأنهار، ويركبون شتى المراكب: سهلها وصعبها، فيذكرون في خشوع وتبتل شاهد حق على صدق الرسالة وصاحب الرسالة: قول الله عز وجل: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾.

وأي منفعة أجل وأعظم من هذه الدروس والعبر يشاهدونها بأعينهم ويلمسونها بأيديهم، ويطمئنون إليها بقلوبهم.

الحج والعمرة ودعَاء الرسول

بقلم: الأستاذ/ أحمد عبد المحسن المشاوي

مشروعية الحج والعمرة:

فرض الحج في السنة السادسة من هجرة رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ونزل قول الله تعالى ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩٦ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٧﴾.

وبلغ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ للمسلمين فريضة الحج بما روي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «أيها الناس، إن الله قد فرض عليكم الحج فحجوا». فقال الأقرع بن حابس: أفي كل عام يا رسول الله؟ فقال: «لو قلت: نعم لوجبت وما استطعتم: الحج مرة فمن زاد فتطوع».

وكذلك كانت مشروعية العمرة من كتاب الله حيث يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ١٥٨﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ﴾ الآية.

وكذلك من حديث رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ حيث يقول: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة».

والحج فريضة محكمة، وهو الركن الخامس في الإسلام، ويشير إلى ذلك حديث رسول الله ﷺ حيث يقول: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا».

فالإيمان به واجب، ويكفر ويخرج من الملة ويقام عليه الحد كفرا كل من أنكر فريضة الحج، ذلك لأنه علم من الدين بالضرورة.

أما العمرة، فاختلفت في حكمها مدارس الفقه الإسلامي، فمن قائل بوجوبها، ومن قائل باستحبابها، وفي رأي بعضهم هي بين الواجب والمستحب، أي هي سنة.

فمن قال بوجوبها نظر إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ﴾ وإلى قوله: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ﴾، ومن قال باستحبابها أو سنتها نظر إلى حديث «بني الإسلام على خمس»، ولم يذكر منهن العمرة.. وعلى كل فهي كفارة لما قبلها من الذنوب، ويعظم ثوابها حتى يصل إلى ثواب حجة

كاملــة، ولكنهــا لا تــسقط الفــرض، إذا أديــت في رمــضان.. يــشير إلى هــذا حــديث رســول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لأم سنان الأنصارية: «ما منعك أن تحجي معنا، قالت: كان لنا ناضحتان (أي بعيرين نستقي عليهما) فركب أبو قلابة وابنه أحدهما. وترك الآخر لننضح عليها، فقال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فإذا كان رمضان، فاعتمري فيه، فإن عمرة فيه تعدل حجة».

وعلى هذا لا يأثم من اعتقد أنها دون الواجب بخلاف الحج فإن من اعتقد أنه دون الواجب يكفر باعتقاده.

كيف قابل المسلمون هذه الفريضة؟:

لقد كان المسلمون ورسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ معهم في تطلع وشوق إلى دخول مكة، حتى تكون الكلمة في بيت الله الحرام لله وحده لا شريك له، وكلما مر بهم الزمن زاد الشوق إلى أن تصل الدعوة لأهل مكة، وتسكن قلوبهم، ويدخلوا في دين الله أفواجًا. ومن يوم أن هاجر الرسول إلى المدينة والحرب قائمة بينه وبين المشركين والتلاحم قائم في كل عام، فغزوة بدر، وغزوة أحد، وغزوة الخندق من المعارك التي كان فيها الالتحام والقتال، ثم صلح الحديبية الذي فيه أقر الطرفان بوضع الحرب بينهما عشر سنوات يبعد الأمل ويزيد الشوق إلى ما يريده المسلمون من دخول مكة دخولا بإسلام أكبر من أن يدخلوها بعمرة.

وتجيء فريضة الحج في السنة السادسة من الهجرة، فيفرح المسلمون ويشتد فرحهم؛ لأنهم أدركوا أن تمام الأمر قد قرب، وأن تحقيق ما وعد الله تعالى به عبده ورسوله قد آن أوانه، وأن مكة لا محالة مفتوحة أمام الدعوة، وأن البيت سيخلص للمسلمين ولكلمة الله وحده لا شريك له. فكان بذلك فرحهم وأملهم ورجاؤهم عظيما وكبيرا. فهي بشارة من الله تعالى لعبده ونبيه بكمال دعوته ونصرة كلمته وتحقيق أمله، خصوصًا وإن كل الفرائض قد تم فرضيتها، فالصلاة في مكة، والزكاة والصوم في المدينة، والشهادة قائمة بها الدعوة من يوم البلاغ الأول لأهل مكة.

أعمال الحج والعمرة:

أعمال الحج عشرة: أولها الإحرام من الميقات، ثانيها الطواف بالبيت، ثالثها السعي بين الصفا والمروة، رابعها الوقوف بعرفة، خامسها المبيت بالمزدلفة، سادسها المبيت بمنى، سابعها رمي الجمرات، ثامنها ذبح الهدي لمن عليه هدي، تاسعها الحلق أو التقصير عاشرها طواف الإفاضة.

أعمال العمرة أربعة: الإحرام من الميقات والطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة والتحلل من الإحرام بالحلق أو التقصير.

وهذه الأعمال تختلف درجتها في الحكم بين الركن والواجب والسنة والاستحباب. أما الأركان فهي في العمرة ثلاثة: الإحرام، والطواف، والسعي فقط. وأركان الحج هي أربعة: هذه الثلاثة ويزاد عليها الوقوف بعرفة.

وبقية الأفعال في كل من الحج والعمرة هي بين الواجب والمستحب، ويجب أن ندرك أن الواجب في باب الحج غير الواجب في غير الحج. فالواجب في

الحج يجبر بالدم، وفي غير الحج هو الركن لا يجبر إلا بفعله، كالركوع في الصلاة، فإنه لا يجبر بسجود السهو، إنما يجبر بالركعة كاملة.

فقــه الحــج والعمــرة: لقد تكلمنا في الأسطر السابقة عن أركان الحج والعمرة وذكرنا بقية الأعمال وكل ما نريد بيانه في هذه الأسطر هو درجة ما عدا الأركان من الأحكام الفقهية.

فسنن الحج هي الغسل للإحرام ومس الطيب قبل الإحرام ونتف الإبط وتلبيد الشعر وصلاة ركعتين قبل الإحرام وملازمة التلبية من الإحرام حتى رمي الجمرة الأولى ثم تنتهي التلبية في الحج، وأيضا تنتهي التلبية في العمرة بعد السعي بين الصفا والمروة، ومنها تقبيل الحجر الأسود، واستلام الركنين، وصلاة في مقام إبراهيم عليه السلام، والشرب من ماء زمزم، ورمي الجمرات، والهرولة في الأشواط الأولى من الطواف، وبين الميلين في السعي بين الصفا والمروة، والحلق والتقصير وطواف الوداع ليلا، وزيارة الرسول عليه الصلاة والسلام. هذه كلها دون الركن في الحج والعمرة، ويجبر بعضها بالدم لمن تركها عند من يقول بالوجوب، وأما عند من يقول: إنها مستحبة فلا دم عليه.

وقد يقع من الناس تقديم وتأخير بين الإفاضة والرمي، هذا لا يضر، وليس فيه شيء من الفداء، ذلك لأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما كان عند الجمرات سأله كثير من الناس عما وقع منه من تقديم لبعض أفعال الحج وتأخير لبعضها، فكان عليه الصلاة والسلام يأمرهم بإكمالها دون أن يلزمهم بكفارة. وقد بين عليه الصلاة والسلام أنه لا حرج عليهم، وإنما الحرج على مرتكب غيبة فقط في هذا اليوم.

ما يحرم على الحاج والمعتمر: يحرم على الحاج والمعتمر بعد الإحرام مس الطيب والنساء، وصيد البر والزواج، والرفث والفسوق والجدال. وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ﴾ وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ - أما صيد البحر فهو حلال ويأكله منه الحاج والمعتمر لقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ﴾.

ولقد بين الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حجه الأكبر الصيد الذي يحرم على الحاج والمعتمر الأكل منه، والصيد الذي لا يحرم، فلقد قدم إليه ﷺ في رحلة الحج لحم يقطر دما هدية، فامتنع عن الأكل، وقال لصاحبه: «نحن حرم» وقدم له أيضا لحم صيد فأكل منه.

وهنا اشترط الفقهاء في حلية الصيد للحاج أو المعتمر أربعة شروط: أولها: ألا يكون الحاج أو المعتمر هو الذي صاد الصيد بنفسه. ثانيها: ألا يكون قد أصطيد من أجله أو لأجله. ثالثها: ألا يكون قد دل عليه الصياد. رابعها: ألا يكون قد أعان على صيده.

إذا توافر النفي في هذه الشروط يحل للحاج أن يأكل من الصيد، وأما إذا فقد نفي في هذه الشروط كأن يكون اصطيد له أو أعان عليه أو أرشد عليه أو اصطاده هو، فيحرم الأكل، وفي الأخيرة يلزم الجزاء من النعم المماثل للصيد بعد حكم ذوي العدل من الرجال. لقوله تعالى: ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾.

كذلك يحرم على الحاج الخطبة لنفسه أو الخطبة لغيره أو إنكاح لنفسه أو إنكاح غيره ووطؤه لزوجته وهو في الإحلال الأكبر وهو الذي يقع بعد طواف الإفاضة.

حكم الحائض والنفساء:

إذا حاضت المرأة أو نفست في الحج بعد الإحرام فإنها تستثفر ولا تقرب البيت، لا بطواف ولا بسعي، حتى ينتهي حيضها أو نفاسها.. وإذا أدركها يوم عرفة تستثفر وتقف مع المسلمين يوم عرفة، حتى لا يفوتها الحج، ثم بعد عرفة تتم حجها، وفي الحج لا تنقض إحرامها، وأما في العمرة فإنها تنقض إحرامها برؤية الدم، ثم حين ينقطع عنها الحيض تحرم للعمرة وتتم عمرتها. ذلك لأن العمرة لا وقت لها، أما الحج فله وقت معلوم لقوله عليه الصلاة والسلام «الحج عرفة».

الغرض من الحج والعمرة:

أما حكمة فرضية الحج فهي مأخوذة أولا من كتاب الله تعالى، وهي حكمة متعددة، أولها: أن يشهدوا منافع لهم، وقد فسرها العلماء بالتجارة التي يتبادلونها فهي منافع لكل من أهل مكة والحجيج.

ثانيها: ذكر الله تعالى، لأنه هجرة إلى الله تعالى بالنسبة للرجل، وجهاد بالنسبة للمرأة، وفيه تلبية، ودعاء، وصلاة، وتكبير، وكله ذكر لله تعالى، وقد ورد عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «أفضل الحج العج والثج».. أما العج فهو رفع الصوت بالتلبية، والثج إسالة دم الهدي. ثالثها: قضاء التفث ووفاء النذر، وقد جاء ذلك في قوله تعالى في سورة الحج: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ ثم يقول تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾.

ويشعر الحاج في رحاب بيت الله تعالى بالأمن والطمأنينة من الحياة وشرورها وآثامها؛ ذلك لأنه في حرم آمن لاتمسه فيه فتنة ولا يلمزه شيطان؛ لأنه ضيف الله، والله وحده هو الحامي له والحارس عليه. ومن كان في هذه الحظوة شعر بالأمن والطمأنينة التي لا يمكن أن تصيب قلب إنسان في مكان غير بيت الله الحرام، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾.

ولا ننسى أن وقوف الحاج عند كل شعيرة من شعائر الحج تذكره مع الوقفة بتاريخها وقيمتها في الدعوة الإسلامية. وفي الرجوع بالقلب والفكر إلى الذكرى، ذلك لمن كان له قلب أي بصيرة أو ألقى السمع وهو شهيد.

إنها تعلم الإنسان كيف يكون محمديا يتحمل مثل ما تحمل رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أمانة

ومسؤولية عن الدعوة إلى الله تعالى، تعلمه حقيقة الجهاد حين يقف أمام أماكن المجاهدة التي شهدت جهاد رسول الله وصبر رسول الله وإيمان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تعلمه كيف يؤمن بإسلامه وبدينه، كما كان محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يؤمن بإسلامه وبدينه، فلقد سووم عليه بالمال والجاه والسلطان والتملك، فقال: «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه».

إنه يتعلم كيف يكون العزم على الجهاد وكيف يكون الصدق في الجهاد مع النفس ومع العدو حين يرى دار الندوى بيت الأرقم بن أبي الأرقم أول منتدى في الإسلام وأول دار أقيمت فيها دعوة الله خالصة، ويرجع بذهنه إلى عدد المسلمين يومها ويذكر كلا باسمه ليرى أنه كان منهم العبد والفقير والضعيف، ولكنهم علموا الدنيا كلها صدق الجهاد وقوة النفس، ومضاء العزم مع قوة الإيمان، وذكر ما كان من إبراهيم خليل الله وولده إسماعيل من صبر على بناء بيت الله وإقامة قواعده، ومن صدق في أداء الأمانة، ومن قوة في الحفاظ على دعوة الله وكلمته.

إنها بحق منافع عظيمة كلها تبعث في النفس الأمل في الأمة وفي الإسلام وفي الحق وفي الخير الذي لا يخرج من هذه الأمة إلى أمة أخرى أبدا مصداقا لقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

دعوات الرسول وأماكنها في الحج:

روي عن الشافعي أن الرسول ﷺ كان إذا فرغ من تلبية في حج أو في عمرة سأل الله تعالى رضوانه والجنة، واستعاذ برحمته من النار، وعلى هذا يكون أول دعاء له عليه الصلاة والسلام بعد الإهلال من الميقات في ذي الحليفة حيث ثبت أنه عليه السلام لبى ثم دعا ربه.

والدعاء الثاني: لما دخل عليه الصلاة والسلام المسجد الحرام من باب بني شيبة وحين رأى الكعبة قال: «اللّٰهم أنت السلام، ومنك السلام، وإليك يعود السلام، حينا ربنا بالسلام، وأدخلنا الجنة بسلام، اللّٰهم زد بيتك هذا تشريفًا وتعظيمًا ومهابةً وتكريمًا، وزد من حجه أو اعتمره تشريفًا وتعظيمًا وبرًا وتكريمًا».

هذا ولم يؤثر عنه عليه الصلاة والسلام أنه دعا في طوافه بدعاء خاص إلا قوله: «ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار».

هذا ويستحب أن يقول الطائف قبل طوافه وقبل هذه الآية كما هو مروي في بعض الأحاديث «اللّٰهم إني أسألك العفو والعافية في الدنيا والآخرة» ثم يقرأ الآية: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ ومن الأدعية المأثورة في الطواف «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله، اللّٰهم إني أعوذ بك من الشك والشرك والشقاق والنفاق وسوء الأخلاق، اللّٰهم قنعني بما رزقتني وبارك لي فيه، واخلف على كل غائبة لي بخير».

وعنـدما قـرب الرسـول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مـن الصفا والمروة قرأ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ﴾ ثم رقى الصفا حتى رأى البيت، فاستقبله وقال ثلاث مرات: «لا إله إلا الله، الله أكبر، لا إله إلا الله وحده لاشريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده».

ثم دعا يوم عرفة وبين عليه الصلاة والسلام أن «خير الدعاء دعاء عرفة وخير ما قلته أنا والنبيون من قبلي «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير».

وكان من دعائه في الموقف «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، بيده الخير وهو على كل شيء قدير، اللّٰهم اجعل في قلبي نورا، وفي صدري نورا، وفي سمعي نورا، وفي بصري نورا، اللّٰهم اشرح لي صدري، ويسرلي أمري، أعوذ بك من وسواس الصدر، وشتات الأمر، وفتنة القبر، اللّٰهم إني أعوذ بك من شر ما يلج بالليل، وشر ما يلج بالنهار، وشر ما تهب به الريح، وشر بوائق الدهر، اللّٰهم لك الحمد كالذي تقوله، اللّٰهم لك صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي، وإليك مآبى ولك ربي تراثي اللّٰهم إنك تسمع كلامي وترى مكاني وتعلم سري وعلانيتي، لا يخفى عليك شيء من أمري، أنا البائس الفقير المستغيث المستجير الوجل المشفق المقر المعترف بذنوبي، أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل وأدعوك دعاء الخائف الضرير، من خضعت لك رقبته وفاضت لك عيناه، وذل جسده ورغم أنفه، اللّٰهم لا تجعلني بدعائك رب شقيا، وكن بي رؤوفا رحيما، يا خير المسؤولين ويا خير المعطين».

هذا ولم يدع الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بدعاء خاص ولا عام عند الجمرات بل كان يكبر، عند كل حصاة، وكذلك لم يدع في طوافه للإفاضة.

ودعا عليه الصلاة والسلام عند دخوله المدينة بعد رجوعه من الحج، وحين رآها كبر ثلاثا، وقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، آيبون تائبون عابدون سائحون لربنا حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده».

منكرات يجب تجنبها:

يحمل كثير من الحجاج أكفانهم معهم بقصد زمزمتها إذا رجعوا سالمين أو أن تكون أكفانهم إذا كانت هناك منيتهم، وهذا من المنكرات والبدع السيئة، ذلك لأن لباس الإحرام هو للدنيا وللآخرة، ولا شيء يفضله، وهذا مأخوذ من مشهد في حج رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، حيث مات أحد الحجاج فأمر الرسول أن يغسل ولا يمسه طيب أو مسك وأن يكفن في لباس إحرامه، وأن يبقى ذراعه الأيمن ووجهه مكشوفا، لأنه كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام: يقوم يوم القيامة وهو يلبي، كما أن الشهيد يكفن في ثيابه لتكون شاهدة له يوم القيامة بما أصابها من تمزق ودم.

بقية إشراقة» المنشورة على ص ٥٦

فقالت لي نفسي: أليست هذه البلاد الخصبة حكمها المسلمون قرابة ثمانية قرون خوالٍ، وملكوا معاقل أرضها وقرارها وكهول الناس وأغمارها، ورؤوس الملوك وغرارها، وحازوا دورها وقصورها وجنانها وأوديتها و أنهارها ومعادنها، وقلاعها وسهولها وجبالها وبرها وبحرها، وذللوها، فخضعت لهم أعناقها، ودانت لهم مشارقها ومغاربها، وأطاعتهم طاعة الدابة الذلول التي لايحتاج راكبها إلى مهماز. ثم دالت الدول، ودارت الأيام، وتنكر لهم وجه الدهر، ودار الزمان عليهم، وضاقت أو كادت تضيق هذه البلاد عليهم على رحبها وسعتها. ونعم ما قال الشاعر الأندلسي شيخ العربية أبو البقاء الرندي:

أتَى عَلَى الكُلِّ أَمرٌ لَا مَرَدَّ لَهُ
حَتَّى قَضَوا فَكَأَنَّ القَومَ مَا كَانُوْا
وَصَارَ مَا كَانَ مِن مُلكٍ وَمِنْ مَلِكٍ
كَمَا حَكَى عَن خَيَال الطَّيْفِ وَسْنَانُ

ثم ينقلب المنظر فيمر القطار بأرض شاسعة جرداء قاحلة غير ذات زرع، أشبه شيء بصحراء العرب: أودية، و وهاد وأغوار، وأنجاد، لايجود عليها السماء إلا قليلا، تتضرم الصحراء فيحًا، وتنفث سمومًا، كأن أحجارها جمرات تتلظى، وشعل من النار تشتعل:

تَغَيّرَتِ البلادُ، ومَن علَيها،
فَوَجهُ الأرضِ مُغبَرٌّ قَبِيْحُ
تغيّر كلُّ ذي لونٍ وطَعمٍ،
وقلَّ بَشاشَة الوَجهِ الصّبيح

وتشكو قلة الأمطار وشح الماء وبخل السماء:

وَوُجُوهُ الْبِلادِ تَنْتَظِرُ الْـ
غَيْثَ انْتظارَ المحِبّ رَدَّ الرَّسُولِ

كل هذه المفاوز فتحها المسلمون يومًا من الأيام، يوم لم تطأها سيارات ولا قطارات، ولا حلقت في سمائها طائرات منذ برأها الله تعالى، وترى آثارهم وبصمات حضارتهم ودولتهم في كل شبر من أشبارها. فكانت لهم أندلس أكبر من إسبانيا بمرات، وكانت لهم فيها جنات وعيون و زروع ومقام كريم، وكانت لهم فيها قرطبة دارالعلوم، وبلسنية، وشاطبة، وجيان، ومرسية، كانت لهم فيها السند، وحيدر آباد، دهلي ، وأحمد آباد، وجونفور، وخيرآباد، و.. و.. و....:

وَأينَ قُرطبة دارُ العلُومِ فَكَمْ
مِنْ عَالِمٍ قَد سَمَا فِيْهَا لَه شَانُ
وَأين حِمصٌ ومَا تَحويْهِ مِنْ نُزَهٍ
وَنَهرُهَا العَذْبُ فَيَّاضٌ وَمَلآنُ
قَوَاعِد كُنّ أركَانَ البِلَادِ فَمَا
عَسَى البقاءُ إذَا لم تَبقَ أَركَانُ

وصدق الله تعالى إذ قال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران:١٤٠]، وقال: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح:٢٣].

... كَمَا حَكَى عَن خَيَالِ الطَّيفِ وَسْنَان

في يوم من أيام الشتاء المشرقة الباسمة كنت في رحلة دعوية في بعض المناطق الهندية البعيدة الأرجاء المترامية الأطراف، فركبت القطار قبل أن تبرز الغزالة من خدرها، فما هو إلا قليل حتى أخذ القطار يشق طريقه بخطوات متسارعة بين الحقول الخضراء والبساتين الناضرة التي أينعت ثمارها، وحان قطافها، وعلى ضفاف الأنهار والجداول أمثال السيوف القواطع، تنساب انسيابَ الحباب، والعليل من الهواء، والأيم في الطلول، والأفاعي الرقطاء في الرمال البيضاء، مياهها صافية صفاء اللجين، يذكرك بما قاله البحتري:

كأنّما الفضّة البيضاء سائلة

من السبائك تجري في مجاريها

وكأني أسمع قول الشاعر:

خَلعَ الربيع على الرُّبا لمَّا انتَشَى

وَشْيًا، وَضَمَّخَهَا بِمِسْك نَافِح

أو قول صفي الدين الحلي يصف فيه الربيع:

خَلَعَ الرّبِيعُ عَلَى غُصُونِ البَانِ

حُلَلاً فَــوَاضِلُهَا عَلَى الكُثْبَــانِ

وَنَمتْ فروعُ الدَّوحِ حَتى صَافَحَتْ

كفل الكَثِيبِ ذَوَائِبُ الأغصانِ

وتتوّجت هَامُ الغُصُونِ وَضَرّجَتْ

خَدّ الرِّيــاضِ شَقَائِقُ النُّعْمَانِ

وَتَنَوَّعَتْ بُسطُ الرِّياضِ فَزَهرُهَا

مُتَبَايِـنُ الأشْكَالِ وَالألْــوَانِ

(البقية على ص ٥٥)

أبو عائض القاسمي المباركفوري